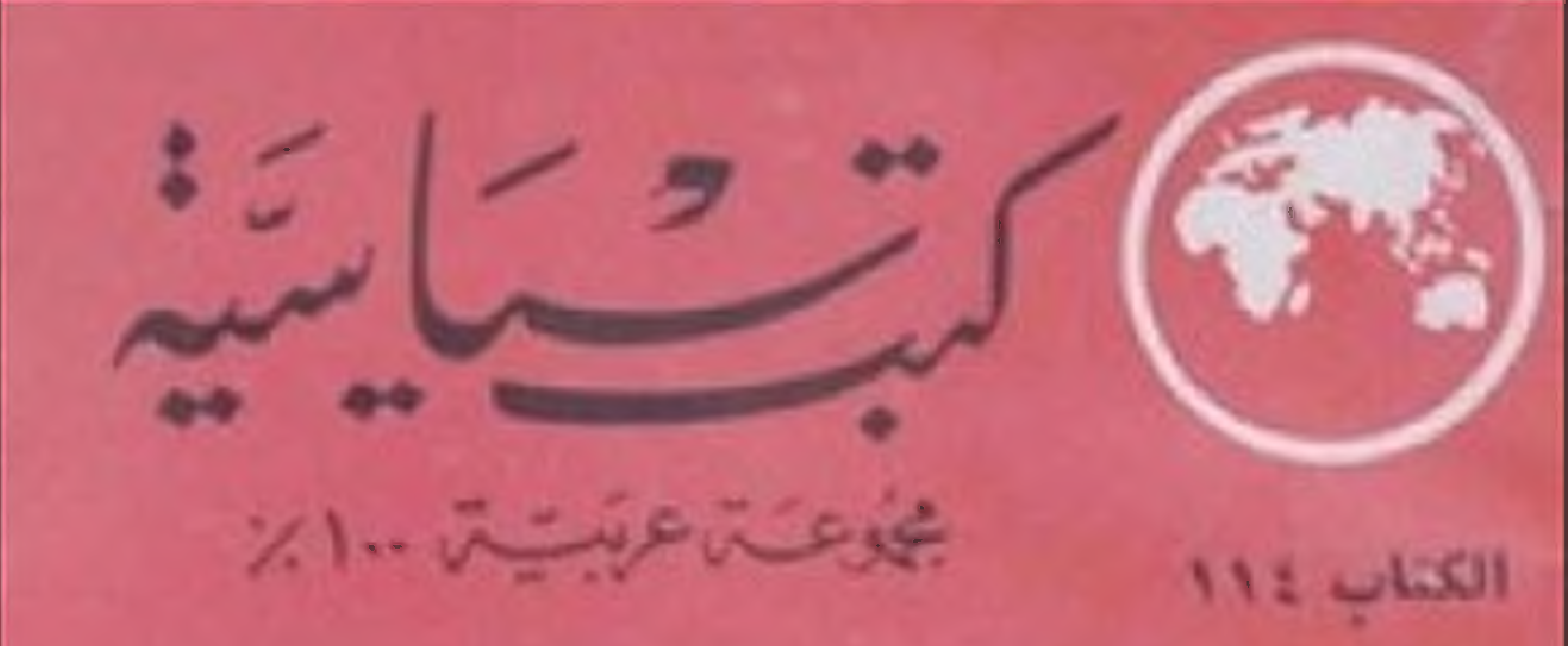


الوطن الجزائري

بقلم الكاتب الفرنسي

مارسيل أجريتو

ترجمة : عبد الله نوار

كتب سياسية
الكتاب ١١٤

الوطن الجزائري

بقلم الكاتب الفرنسي
مارسيل أجريتو

مقدمة

نبدأ الكلام فى هذه المقدمة بالسؤال التالى :

ما الذى أفادته الجزائر من الاستعمار الفرنسى ، ولا شك أن التقرير الرسمى الذى نشرته جريدة « دربيجل » التى تصدر فى ألمانيا الغربية، وهى مصدر محايد بلا شك ان لم يكن أكثر ميلا للغرب يفند الاجابة الواضحة ، فقد جاء فى هذا التقرير ما يلى :

ان عدد سكان الجزائر يزيد عن ثمانية ملايين نسمة ، وأن عدد المستعمرين الفرنسيين نحو المليون ٠

ومن مزايا الاستعمار ، ان دخل الفرد الواحد من هذا المليون يبلغ أو يزيد عن عشرة أضعاف دخل الفرد الواحد من الملايين الثمانية ، وهم أهل الجزائر الاصليون ، وان ٨٠٪ من الارض الزراعية يملكها الفرنسيون وحدهم، ومتوسط دخل الاسرةالواحدة من المزارعين الجزائريين لا يزيد عن ٢٠ ألف فرنك فى العام ٠

ويمكن مقارنة ضآلة هذا الدخل اذا علمنا أن أقل أجر للعامل فى فرنسا يزيد عن ٢٢ ألف فرنك فى الشهر الواحد ، وان مستوى الاسعار فى الجزائر كمستوى الاسعار فى فرنسا تماما ٠

ومن مزايا هذا الاستعمار أيضا أن ٨٠ ٪ من أطفال الجزائر محرومون من التعليم ، لأن فرنسا آلت على نفسها ألا تتكفل بتعليمهم ٠

ان الدول العربية ، تشبه شمال افريقيا بالطير الذى جسمه الجزائر ٠ وجناحاه تونس والمغرب ٠ وإذا كان الجناحان : تونس والمغرب قد استقلتا وتحررتا ، فقد آن للجسم نفسه أن يتحرر وينطلق ٠

لقد انطلقت فى مساء أول نوفمبر ١٩٥٤ الرصاصة الاولى فى الحرب التى أعلنها جيش التحرير الجزائرى على الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ·

وفى تلك الليلة بالذات ، شهدت مقاطعات ومدن قسنطينة وقابيليا وأوراس بداية هذه الحرب التى ما لبثت أن شملت جميع أنحاء الجزائر بلا استثناء ، من حدود مراكش الى حدود تونس ، وتوحدت القوى المقاتلة · وتكون جيش التحرير الجزائرى الذى يقدر عدد أفراده بأكثر من ١٣٤ ألف رجل ·

وقد حاول رؤساء الوزارة فى فرنسا عبثا خداع الرأى العام العالمى حين طلبوا الى مندوبى الصحف ألا يقارنوا بين حرب الجزائر وحرب الهند الصينية ، وهى الحرب التى كلفت فرنسا ٩٢ ألف قتيل أو مفقود ، فضلا عن ١١٤ الف جريح أو مشوه · وكلفت فرنسا أكثر من ٥ مليارات من الدولارات علاوة على الدمار الذى الحقته بالروح المعنوية للجيش الفرنسى ·

والواقع أن الحرب الدائرة الآن فى الجزائر ، هى صورة أخرى من حرب الهند الصينية ، على اعتبار أن وسائل الحرب القذرة التى شنتها فرنسا فى الهند الصينية هى نفس وسائل الحرب القذرة التى تشنها اليوم فى الجزائر ·

ومن وسائل التمويه والخداع التى تلجأ اليها فرنسا اطلاق كلمة « التهدئة » على الوسائل القذرة التى تقوم بها قواتها فى الجزائر ·

وكلمة « التهدئة » التى تعنيها السلطات الفرنسية هى حرب « الابادة الشاملة » دون تفرقة بين المسلمين والسكان الآمنين ·

وقد حدث أن هاجم جيش التحرير الجزائرى قوة فرنسية فى « بالسترو » · وعلى أثر ذلك قامت القوات الفرنسية بعملية « تهدئة » فى تلك المنطقة ، فأحرقت مساكنها · وكان بداخل بعض هذه

المساكن ، سبع عشرات من السكان أعدموا فورا تنفيذا لسياسة التهدئة ..

واعترف الزعيم الاشتراكي أدوارد ديبرو بأن القوات الفرنسية اضطرت الى قتل ٤٨ ألف جزئري فى شهر وحد من بداية الحرب ، تنفيذا لسياسة التهدئة هناك .

ومن أساليب سياسة « التهدئة » التى تتبعها فرنسا فى الجزائر ، الحادث الذى اتبعت فيه أحط وسائل الخسة والدناءة وهو حادث القاء القبض على خمسة من زعماء جبهة التحرير الوطنية والاستيلاء على الطائرة التى كانت تحلق بهم فى حين أنهم كانوا يقومون بمفاوضات مع حكومتي المغرب وتونس للوصول الى حل لتسوية وتهدئة الموقف فى الجزائر .

وقد وصفت جريدة « كومبا » الفرنسية هذه « التهدئة » بانها « اختبار شديد القسوة » لفرنسا ، وأنه لا مفر من التسليم بأن فرنسا أصبحت تواجه حربا حقيقية فى الجزائر وأن هذه الحرب أصبحت تهديدا موجها لفرنسا التى أصبحت بدورها غافلة عن مخاطرها .

وقالت الجريدة ان « جوبيتر » آله الحرب عندما يرغب فى تدمير اية دولة ، يستوقها أولا الى طريق الجنون ، وأن هذا هو ما يفعله الآن بفرنسا فى حربها مع الجزائريين .

وتقول الجريدة : ان هذا الجنون بدا واضحا فى العدوان الفرنسى على مصر ، فقد اعتقدت فرنسا أنه لابد من فتح « جبهة ثانية » فى ميدان الحرب الجزائرية وهذه الجبهة الثانية هى «مصر» على اعتبار أن ازالة حكومة الرئيس جمال عبد الناصر فى مصر ستكون بمثابة بداية النهاية للحرب الجزائرية .

ولم تتورع الصحف الفرنسية عن اخفاء هذا الجنون ، فأجمعت

هذه الصحف في شهر أغسطس عام ١٩٥٦ - قبــل الاعتداء على مصر - على أن مسيو لاكوست الوزير الفرنسى المقيم فى الجزائر ، أبرق الى حكومته يحثها على أن مصير الجزائر لا يتقرر فى باريس أو فى الجزائر نفسها ، ولكنه يتقرر فى مدينة القاهرة ..

لقد منعت الحكومة الفرنسية عرض فيلم « بل آمى » فى فرنسا وغيرها ، وهو الفيلم الذى تستتمد وقائعه من قصة « جى موباسان » المشهورة ، وتشرح الدوافع الخفية لتاريخ الاستعمار الفرنسى منذ القرن التاسع عشر حتى الآن ، وهو التاريخ الذى يعتبر استعمار الجزائر احدى حلقاته

وقد كشف مسيو جورج فيبه رئيس المجلس الوطنى للصناعة فى فرنسا الستار عن أسباب الحرب التى تخوضها فرنسا فى الجزائر ، فحث حكومته على بذل التضحيات الضرورية ، لتحول دون تدهور الاقتصاد الفرنسى ..

والواقع ان رأس المال الفرنسى قد تدخل فى الجـزائر بدرجة لم تحدث فى أية مستعمرة فرنسية ، فالجزائر هى السوق الكبير لتصريف المصنوعات الفرنسية ، وهى ثانى الاســواق التى تزود فرنسا بوارداتها ، واقتصاد الجزائر بأكمله تحت رحمة فرنسا ، والمصارف الفرنسية تسيطر على مصارف الجزائر وبيوتها المالية ، والمصادر الغنية بمعدن الفحم والفوسفات والزنك والحديد وغيرها من المعادن الاخرى تقع فى قبضة الاحتكار الفرنسى .

والمؤسسات الجزائرية بأجمعها ليســـت الا فروعا وملحقات للشركات الفرنسية الكبيرة .

ومن السهل اثبات ذلك اذا علمنا أن أرباح شركات مناجم حديد « دى لاكنزا » زادت ٢٥٠٠ مليون فرنك ، وشركات صناعة الدخان بأنواعه ارتفعت الى ٤٠٠ مليون فرنك .

ومن أجل مصالح هذه الشركات وحدها تراق الدماء في الجزائر، والشعب الفرنسي هو الذي يدفع نفقات هذه الحـــرب وآلاف من الشباب الفرنسي يلقون مصارعهم في سبيل أطماع الرأســمالية الفرنسية .

على أنه ليست الرأسمالية الفرنسية وحدها هي التي تتآمر على امتصاص دماء الجزائريين وغيرهم من دول شمال افريقيا وتضحي بشباب فرنسا من أجل هذه الاطماع ، ولكنها « مؤامرة أمريكية ، أوربية » هي التي تشترك في هذه الحرب ، بل ان هذه المؤامرة هي التي تتولى وحدها تمويل هذه الحرب ويبدو ذلك واضحا فيما يلي :

في القـــروض والمســاعدات الامريكية الخيــالية التي تقـــدم لفرنسا الكسيحة المفلسة لمعاونتها ومساعدتها على محاولة الوقوف أمام الهجمات التي يشنها جيش التحرير الجزائري عليها .

ثم يأتي دور الصحراء الكبرى والخطط التي تشترك فيها الدول الاستعمارية والرأسمالية الغربية .

فمساحة الصحراء الكبرى مليون و ٧٠٠ ألف كيلو متر مربع . أي ثمانية أضعاف مساحة فرنسا نفسها .

والصحراء الكبرى في نظر فرنسا يمكن أن تصبح منطقة «المرور» الجديدة للقارة الاوروبية نظرا للكنوز المعدنية التي تزخـــر بها تلك الصحراء .

وقد كشفت مناقشات الجمعية الوطنية الفرنسية في شـــهر ديسمبر ١٩٥٧ عن هذه الثروات،فجاء في تقرير رسمي كان موضع مناقشة الجمعية ما يلي :

أولا ــ يقدر الفحم الموجود بهذه الصحراء مبدئيا بأزيد من ألف مليون طن منها كميات وافرة من فحم « الكوك »

ثانيا ـ الحديد الموجود فيها ضعف الموجود منه فى منطقة اللورين الفرنسية ، مع ملاحظة ان النوع الموجود بها ممتاز ٠

ثالثا ـ هناك كميات ضخمة جدا من المنجنيز والنحاس والزنك والمعادن النادرة ـ كالاورانيوم

رابعا ـ وفيما يتعلق بالبترول الموجود بها ٠ فقد قدر الخبراء أن الانتاج السنوى يصل الى ٦٠ مليون طن سنويا ٠

ويضاف الى هذا كله أن الصحراء الكبرى تعتبر من المصادر الغنية بالغاز الطبيعى ٠

ولكن ما معنى هذا كله بالنسبة لفرنسا أولا ؟ ان عصب الحياة فى فرنسا يقوم على الفحم ، وتدل الاحصائيات الرسمية لعام ١٩٥٥ على أن ٣ر٦٤ ٪ من القوى المحركة فى فرنسا تنتج من الفحـــم و ٤ر٢١ ٪ تؤخذ من البترول والباقى من الغاز الطبيعى ٠

وقد استهلكت فرنسا من الفحم أكثر من ١٣ مليون طن فى ذلك العام ، علاوة على ما تنتجه ٠ ومعنى هذا أن على فرنسا أن تستورد ما يلزمها منه من الولايات المتحدة بأسعار عاليه ٠

وينصب هذا على البترول ، اذ بلغ ما استوردته فرنسا أكثر من مليون طن فى ذلك العام ومعنى ذلك استهلاك ملايين الدولارات ، وقد بلغ ما دفعته لشراء البترول الخام فى ذلك العام أكثر من ٤٩٤ مليونا من الدولارات ٠

ولهذه الاسباب كلها ولاسباب استراتيجية أخرى سيأتى ذكرها، أصبح مشروع استغلال الصحراء مشروعا استعماريا نيطت بالقوات الفرنسية المسلحة مهمة الدفاع عنه ٠

ثم يأتى دور الرأسمالية الامريكية ومن ورائها الشركات الاخرى التى تمولها ألمانيا الغربية وهولندا

وفيما يلى بعض الشركات التى منحت تراخيص لاستغلال الصحراء والقيام بأعمال التنقيب عن البترول فيها :

شركة الزيت الاهلية للجـــزائر ، وقد منحت حق التنقيب فى مساحة قدرها ١٩٩ر٥٠٠ كيلو متر مربع ونصف ورأس مال هذه الشركة دفعته الحكومة الفرنسية ٠

وشركة الزيت الفرنسية ، وشركة الزيت الجـــزائرية والاخيرة تساهم فيها شركات هولندية ، بريطانية ٠

ومن المسلم به أن استغلال الصحراء الكبرى ليس من حـــق الاستعمار الفرنسى أو الاستعمار الامريكى أو الاستعمار الغـربى فى أية صورة من صوره ، لان هذه الصحراء تقع فى ارض جزائرية ومغربية وفرنسية ، وهى بلاد كلها مستقلة ومن حقهـــا أن تتولى استغلال نصيبها من الاراضى فى نظام تقرره الامم المتحدة وتقوم هى بتمويله ٠

والصحراء الكبرى ذات مركز استراتيجى هام جدا لفرنسا ٠

وتقول اللجنة العسكرية فى الجمعية الوطنية الفرنســـية ان الصحراء الكبرى تتمتـــع بمركز فريد وجيد فى جهات الاستعمار الفرنسى ، اذ يمكن اعتبارها الطريق الذى يربط شـــمال افريقيا بوسطها ، والقواعد الجوية فى تلك المنطقة يمكن منها اصابة أى هدف فى منطقة البحر الابيض المتوسط ٠ ثم يجب أن يدخـــل فى حسابنا أيضا ان هذه الصحراء أصبحت مركزا هاما لاجراء التجارب الذرية المدمرة

إن الحرب الجزائرية -بالنسبة لفرنسا - تعتبر فى الواقع امتدادا للحرب العالمية الكبرى التى خاضتها فرنسا منذ ١٩٣٩ ٠ فالى جانب الدرس القاسى الذى لقنه لها الالمـــان ، والى جانب الهزائم المتكررة

التى منيت بها فرنسا فى موقعة ديان ـ بيان - فو فى الهند الصينية فان هناك أيضا الحرب الجزائرية التى ستعجل بسقوط الاستعمار الفرنسى فى وقت قريب .

وتقول مجلة نيوز ويك الامريكية وهى تعبر عن آراء الدوائر الرسمية : ان خسائر فرنسا فى خلال السنوات الاربع التى شن فيها جيش التحرير الجزائرى الحرب عليها، بلغت ٦٥ ألف قتيل وكلفتها أكثر من خمسة مليارات من الدولارات ، كما أن هذه الحرب وحدت الشعوب العربية وقصمت عرى التحالف الغربى ، وجعلت الاقتصاد الفرنسى مهددا على الدوام .

ومن الاشياء المعروفة الآن فى فرنسا ، انه اذا ذكرت كلمة « الجيلوتين » أمام شخص ما . فان الذاكرة تعود به الى الثورة الفرنسية السابقة ، وكيف كانت « الجيلوتين » تنصب فى شوارع مدينة باريس وغيرها من المدن لقطع الرقاب وازهاق الارواح ، وسط تصفيق الشعب وتهليله .

ولكن كلمة « الجيلوتين » أو « المقصلة » هى الوصف الذى يطلق الآن على المشروعات الاقتصادية التى تلجأ اليها فرنسا لمواجهة حالات الافلاس والعجز الناشئين عن ثورة الجزائر وهى المشاريع التى تستهدف « شنق » الشعب الفرنسى لصالح الرأسمالية الفرنسية ، فقد كان مجموع قيمة الضرائب المفروضة على الشعب الفرنسى ٢٥٩٧ مليون فرنك عام ١٩٥٣ منها ١١٠٦ مليون كضرائب مباشرة و ١٤٩١ ضرائب غير مباشرة ثم ارتفع هذا الرقم الى ٢٦٧٨ مليون فرنك عام ١٩٥٤ منها ١١٠٥ ضرائب مباشرة و ١٥٧٢ مليونا ضرائب غير مباشرة .

ثم تدرجت الضرائب على النحو التالى :

السنة	ضرائب مباشرة	غير مباشرة	المجموع
	بآلاف الملايين		
١٩٥٥	١١٣٥	١٦٤٢	٢٧٧٧
١٩٥٦	١٣٥١	١٧٥٦	٣١٠٧
١٩٥٧	١٤٧٠	١٩٥١	٣٤٢١

ولا شك أن هذه الارقام تبين بوضوح ضخامة عدد المشانق التى تقام للشعب الفرنسى ارضاء لاصحاب رءوس الاموال وتحقيقا لاحلام الاستعمار الى جانب المشانق الاخرى التى تنتظر الجيوش الفرنسية فى الجزائر .

وتتناول سياسة « المشانق » ميدانا آخر من ميادين الاقتصاد الفرنسى المحطم ، فهناك ميدان التجارة الخارجية والمدفوعات واحتياطى الذهب ، اذ تدل الاحصاءات الرسمية على أن احتياطى الذهب فى فرنسا قد هبط بمقدار ٩٠٠ مليون دولار عام ١٩٥٥ ، أى أكثر من الثلث .

وقد حاول وزير المالية الفرنسية الدفاع عن هذه المشكلة ،فاورد حجة تدعو الى الضحك اذ قال : ان هذه الخسارة قد عوضتها فرنسا بزيادة فى الانتاج.

وهى حجة تشبه بطل احدى روايات الكوميديا الفرنسية عندما ضربه زميل له بحذائه فى ظهره، فدافع عن نفسه بأنه أنما استخدم ظهره ليؤلم قدم غريمه !

ان العوامل الخفية التى تقف وراء هذا الافلاس الاقتصادى المحقق هى المغامرات العسكرية الفرنسية فى الجزائر ، ودور حلف الاطلنطى واسلحته فى هذه المغامرة ، فقد حدث فى عام واحد أن دعى

من رجال الاحتياطي مائة الف شخص وارسلوا على الفور ليلاقوا مصيرهم المحتوم فى الجزائر ، ومعنى هذا تعطيــــل المشروعات العمرانية في داخل فرنسا نفسها .

ان تأثير الحرب الجزائرية يبدو واضحا فى مشاريع العمــران الفرنسية عندما نعلم انه فى عام واحد قررت الحكومة الفرنسية إقتطاع ١٥٠ ألف مليون فرنك من نفقات المشروعات المدنية للمحافظة على النفقات العسكرية لكى تبقى هذه النفقات فى مستواها العالى .

وهناك أيضا كارثة التضخم النقدى وانهيار سعر الفرنك فقد بلغت قيمة الاوراق النقدية المتداولة ٢٨٢٠ مليون فرنك عام ١٩٥٥ وارتفع هذا الرقم الى ٣٠٨٥ مليون فرنك في أوائل عام ١٩٥٦

ويقابل هذا ارتفاع خطير فى أسعار المواد مع بقاء أسعار الاجور والماهيات كما هى .

وتلجأ الحكومة الفرنسية ـ عندما تحاول تجنب الاخطار الناشئة عن الانهيار الاقتصادى ـ الى خداع الشعب الفرنسى بطريقة لا تلجأ اليها الا حكومة توجهها شرذمة من الوزراء المزورين .

ويؤيد هذا التزوير ما فعلته الصحف الفرنسية التى تقـول ان الحكومة « تطبخ » أرقام الاحصاءات الرسمية التي تذيعها على الشعب الفرنسى ، وتزعم فيها كاذبة أنه ليس هناك ما يدعو الى زيادة الاجور والماهيات ، لان أسعار أكثر المواد لم تتغير .

وقد تولى اتحاد نقابات العمال فى فرنسا تكذيب هذه الاحصائيات المزورة ، وردت عليها طبقات الشعب الفرنسى ، بعمالها وموظفيها ، بحركات الاضراب التى اشترك فيها جميع أصـحاب المهن والحرف وطالبوا بزيادة الاجور

ان سياسة فرنسا فى الوقت الحاضر تقوم على انه فى مدى عشر

سنوات سيتاح لها الاستغناء عن البترول الذى تستورده من الشرق، وبالتالى ستتاح لها فرصة عدم الاعتماد على هذه المصادر البترولية التى يسيطر عليها الرئيس جمال عبد الناصر

فالصحراء الكبرى تحتوى على مستودعات ضخمة من البترول والمعادن الاخرى ، وبواسطة هذا البترول يمكن تصنيع الجزائر

هذه هى السياسة الفرنسية التى تؤيدها الراسمالية الغربية ، وهذه هى أسباب حرب الابادة التى يقوم بها الجيش الفرنسى فى الجزائر ، وأسباب تآمر الرأسمالية الامريكية والهولندية والبريطانية وغيرها من الدول الاوربية ، واشتراكها فى محاولة استغلال الصحراء الكبرى ، ومحاولة القضاء على كل صوت ينادى بالاستقلال هناك أو فى دول افريقيا الشمالية

ولن تتصور مبلغ الخسائر التى ستمنى بها فرنسا فى مدى هذه السنوات العشر ، اذا لم ينته الاستعمار الفرنسى نفسه فى أقل من ذلك بكثير ، على أننا نورد فيما يلى مقدار الخسائر التى لحقت فرنسا فى حربين من « الحروب المحلية » التى لم تخضها منفردة . بل بمساندتها المساعدات الامريكية ، وأسلحة حلف الاطنطى ..

ففى حرب الهند الصينية أنفقت فرنسا خمسة بلايين من الدولارات، وفى حرب السويس المحلية أنفقت فرنسا ٣٠ ألف مليون فرنك

وفى الحرب الجزائرية لا يمكن تقدير مدى الخسائر التى أصابت فرنسا منذ ١٩٥٤ للآن ، لانها خسائر أفدح من أن تقدر فى كتاب واحد ، ولانها من الخسائر التى لم تقف أرقامها حتى الآن ولن تقف قبل أن تحصل الجزائر على استقلالها .

الفصل الأول
حقـائق جغرافية

تحتل الجزائر الجزء الاوسط من المنطقة المعـــروفة بافريقيا الشمالية بين تونس والمغرب ، وتبلغ مساحتها ٢٠٤٫٨٦٤ر ٢ كم وهى منقسمة الى قسمين :

١ ـ الجزائر الشمالية : أى منطقة الاطلس ، وهى منطقة شبه مربعة طولها ١٠٠٠ كيلو متر تقريبا ، وعرضها يتراوح بين ٢٥٠ و ٤٠٠ كيلومتر ، ومساحتها نحو ٣٠٠ر٠٠٠ كم (مساحة فرنسا ٥٥٠ر٠٠٠ ك م) ويقيم فى هذه المنطقة ٩٥ ٪ من أهالى الجزائر .

٢ ـ صحراء الجزائر : وتبلغ مساحتها ٨٦٪ من أراضى الجزائر

وبموجب الاحصاء الذى تم عام ١٩٥٤ يبلغ عدد سكان الجزائر ٩ر٥٠٠ر٠٠٠ نفس ، ويبدو ان عدد السكان يزداد باطراد،لانه كان نحو ٨ر٧٠٠ر٠٠٠ نفس فى عام ١٩٤٨

وتسمى منطقة الجزائر الشمالية بجزيرة المغـرب ، وقد أطلق عليها هذا اللقب الجغرافيون العرب ، لانها بقعة مرتفعة بجبالهـــا وهضابها تقع بين البحر والصحراء التى تكاد تكون خالية الا من بعض الواحات والمراعى ومزارع النخيل فى الجزء الشمالى منها

ويبلغ متوسط ارتفاع هضاب الجزائر الشمالية نحو ٩٠٠ متر ، ويبلغ ارتفاع أعلى قمة فى جبال أوراس ٢٣٢٨ مترا وهى قمة جبل شمليا .

وتمتد فىالشمال بمحازاة شاطىء البحر احدى سلسلتى جبـال اطلس ، والسلسلة الاخرى تمتد فى الجنوب من الشرق الى الغرب تتوسطهما منطقة من السهول

ومناخ الجزائر معتدل بالمناطق الساحلية حيث لا يزيد متوسط الحرارة عن ٢٥ درجة مئوية . ولكن ليالى الصيف حارة خانقة ، أما الشتاء فلطيف وسماؤه صافية نيرة . ويكثر هبوط الثلوج فوق الجبال والسهول، أما في الداخل الى الجنوب فالهواء جاف، والحرارة مرتفعة تصل الى ٤٥ درجة مئوية فى فصل الصيف .

وتهطل الامطار بنسبة كافية بالمناطق الساحلية ، وبصورة غير منتظمة ، ومع ذلك فالمنطقة الشمالية تصلح للزراعة في مساحة تقدر بـ ١٣٠٠٠٠ر كم . بينما تبلغ مساحة المنطقة الجافة القاحلة ١٧٠٠٠٠ر ك م .

وتكثر الحقول والاشجار في المنطقة الشمالية ، بينما تقتصر المنطقة الجنوبية على المراعى ونبات الالفا . وفى المنطقة الشرقية من الجزائر تكثر أشجار الزيتون والتين والغابات وأشجار الفلين ، وهذه المنطقة أكثف مناطق الجزائر سكانا، وأكثرهم من الجزائريين، وعدد المزارعين المستعمرين قليل ، وهم يمتلكون أكثر هضاب قسطنطينة التى تنتج محاصيل الحبوب أو يتخصصون في النواحي الصناعية ومنها المناجم ، وتزعم فرنسا سترا لنياتها الاستعمارية أن موارد الجزائر الطبيعية غير كافية ، وان الاراضى الزراعية ضيقة المساحة ، وما تنتجه من الحبوب لا يكفى لاطعام سكانها . وان الطبيعة مسئولة أيضا عن فقر الاهالى .

واذا ألقينا نظرة فاحصة اتضح لنا ان نظام الحكم الاستعمارى لم يقتصر على عدم توسيع رقعة الاراضى الزراعية ، بل عمد إلى تضييق مساحة الاراضى المنتجة للحبوب ، وخصص مساحات كبيرة من الاراضى الخصبة للمنتجات التى تصدر للخارج ، وتعود على المستعمرين بأرباح طائلة ، وتحرم أهالى البلاد من زراعة الحبوب الضرورية لمعيشتهم

والحق يقال ان الجزائر ليست بلادا فقيرة ، ولكنها متخلفة فى مجال النمو وهى مع ذلك فى وضعها الحالى تعتبر ذات موارد هامة

وهذه الموارد ستزداد أهمية إذا أتيح للشعب الجزائرى تزويد بلاده بوسائل الانتاج المناسبة

وما دامت المحاصيل الغذائية غير كافية كما يدعى المستعمرون فلماذا يحرم على أهالى البلاد تحسين وسائل معيشتهم ؟ فى حين انهم يصدرون للخارج ثروات البلاد التى هى ثمرة كد الاهالى واجتهادهم

ومما يؤسف له أن مناطق الشمال الخصبة بكرومها وحقول القمح ومزارع البرتقال وغابات الفلين وسهول الالفا التى تكثر فيها لا يملك الشعب الجزائرى منها شيئا ، وهذه هى المأساة التى سنضمنها الجزء الثانى من هذا الكتاب

ان ثروات الارض المعدنية على جانب من الاهمية ، ولكن الجانب القليل الذى يستخرج منها فى الوقت الحاضر يصدر للخارج دون أن تستفيد منه البلاد فى أية صناعة من صناعات التحويل ، ففى الجزائر تبر الحديد بمناجم « ونزه » فى منطقة قسطنطينه ، ومنجم «بنى صاف» فى منطقة وهران ، وكذلك مناجم الفوسفات والرصاص والزنك .

وهذا عدا مناجم الفحم الحجرى والحديد والمنجنيز فى منطقة كنادسا - كولومب - بيشار الصحراوية ، وكذلك البترول الذى تم اكتشافه أخيرا فى قلب الصحراء ، وزاد فى أطماع المستعمرين وأثار عوامل جشعهم .

وتزعم الدعاية الاستعمارية من ناحية أخرى أن بلاد الجزائر على اختلاف مناطقها وانتاجها واختلاف طرق المعيشة بين أهليها من البدو والحضر وسكان السهول وسكان الجبال لا يمكن أن تكون وحدة شاملة ، لان هذه العوامل والعناصر المختلفة يصعب صهرها وضمها فى هيئة واحدة ، أو مجموعة وطنية موحدة وسنفند هذه المزاعم فيما يلى من أبحاث :

الفصل الثانى

نبذة تاريخية عن الجزائر قبل الغزو الفرنسي

لا يوجد كتاب يوضح وضوحا تاما تاريخ الجزائر ، ويعزو المؤرخون هذا النقص الى قلة المصادر التى يمكن الاعتماد عليها ، والى عدم الثقة فى بعض المصادر القديمة ، بل الى الصعوبات التى تعترض الباحث فى هذه الناحية .

وهذه الادعاءات كلها باطلة ، لان السبب الحقيقى فى القاء الحجاب على ماضى الجزائر هو أن المستعمرين الفرنسيين الذين يسيطرون عليها منذ ١٢٨ عاما لم يمكنوا أحدا من البحث عن حقيقة تاريخ الجزائر ، ومن يا ترى أولى بالبحث فى هذا التاريخ سوى أهالى البلاد ، ولكن الفرنسيين دأبوا على حرمان الجزائريين من الوسائل التى تؤهلهم لمعرفة تاريخ بلادهم .

ولهذا فان بعض المؤرخين المذكورين الذين يضجون بالشكوى من قلة الوثائق التى تسهل لهم أبحاثهم يمتنعون عن التصريح بأن الغزاة الفرنسيين أتلفوا عددا كبيرا من الوثائق والمراجع القيمة التى يمكن الاعتماد عليها فى كتابة التاريخ الحقيقى لهذه البلاد

وقد بدأ هذا العمل الاجرامى الوحشى حين أحرق جنود الجنرال دوق دومال مكتبة الزعيم عبد القادر الجزائرى . وقد كتب ب . ازان مؤرخ الامير الجزائرى العظيم فى كتابه « الامير عبد القادر » أن الامير أصابته نوبة من الحزن العميق وهو يتتبع أثر الطابور الفرنسى ، مسترشدا بالاوراق المبعثرة فى الصحراء التى أنتزعها الجنود الفرنسيون من الكتب التى عانى الكثير فى جمعها .

وتساءل ج . مارسيه من مشاهير مؤرخى الفن الاسلامى فيقول :

هل عملت فرنسا على الاحتفاظ بمعالم الفن الجزائرى والحرص على دراسته ، وأجاب على ذلك قائلا بكل اخلاص : ان فرنسا لم تفعل شيئا من ذلك ، بل على العكس عمدت فى أكثر الاحيان الى طمس هذه الكنوز وبعثرتها •

وظهر من المصادر القليلة التى توصل اليها بعض المؤرخين من أصحاب النيات الحسنة ان الوقائع الحقيقية تكذب الحقائق التى يؤكدها الاستعماريون ، بل لقد اعتمدوا عليها فى دعاياتهم المغرضة ليدللوا على ضرورة إبقاء هذا الشعب تحت وصايتهم البغيضة •

ولا يزال ملايين من الفرنسيين الطيبى السريرة يعتقدون ان الحضارة لم تدخل الجزائر الا مع جنود الجنرال بوجو ، وان مطالب الجزائريين فى الوقت الحاضر ليس لها أىمبرر من الوجهةالتاريخية وما هى الا نوع من أنواع الدعاية المصطنعة •

تاريخ الجزائر قبل غزو الرومان

منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، أى منذ القرن الثانى عشر قبل الميلاد أسس الفينيقيون مراكز تجارية علىسواحل الجزائر واتصلوا بأهالى البلاد الاصليين الذين كان اليونان والرومان يلقبونهم بالنوميديين •

وكان هؤلاء فرسانا أشداء يؤلفون فيما بينهم قبائل متحدة ذات قوة وبأس تكون مجتمعا على جانب من الرقى يحتفظ بتقاليد لا تزال الى اليوم موجودة بين بعض قبائل البربر •

وفى القرن التاسع قبل الميلاد بنى الفينيقيون مدينة قرطاجةقرب تونس ألتى أصبحت آذ ذاك عاصمة أكبر مملكة منافسة لروما فى حوض البحر المتوسط ، وظلت زاهرة حتى عام ١٤٦ قبل الميلاد

فاستولى عليها الرومان ودمروها ، ولكن حضارة قرطاجة بقى أثرها لدى البربر من أهالى نوميديا ، وأفريقيا الشمالية •

وكان الرومان يطلقون إسم البربر على النوميديين ، وسكان شمال افريقيا بوجه عام ، وأخذ العرب عنهم هذا الاسم وعرفوا أهل شمال افريقيا من غير العرب بالبربر أو البرابرة، وحذا الفرنسيون حذوهم

والبربر من سكان شمال افريقيا أجناسهم مختلفة ، ولا يزالون على هذه الحال الى يومنا هذا •

وفى القرن الثالث قبل الميلاد فى عهد مملكة قرطاجة أسس البربر مملكتان فى المنطقة المعروفة اليوم بالجزائر الشمالية • واتحدت المملكتان تحت حكم الملك ماسينيسا (عام ٢٠٣ ـ ١٤٨ قبل الميلاد) وقاوم ماسينيسا روما وقرطاجة • وكان ملكا حكيما نمى موارد البلاد ووسع الزراعة ، وازدهرت البلاد فى عهده ، وبنى مدنا جديدة منها عاصمته « سيرتا » وهى قسطنطينة اليوم التى نالت شهرة واسعة اذ ذاك ، وعهد الازدهار فى الجزائر ينسب الى هذا الملك العظيم قبل أن تستولى روما على بلاده •

استولى الرومان على الجزائر الشرقية والوسطى والغربية زهاء أربعة قرون ، وقسموها الى أربع ولايات وجعلوها تحت حكمهم المباشر وفقا لنظام السيطرة الرومانى ، ثم استولوا على أطيب الاراضى وانشأوا مزارع واسعة تستثمرها شركات زراعية ، وكان لأصحاب الاراضى والمحاربين والمهاجرين من مختلف البلاد وزعماء البربر أن يمتلكوا العقار ، أما الفلاحون من البربر فقد رحلوا الى الاراضى الصحراوية القاحلة فعاشوا عيشة البدو •

ونجم عن استثمار الارض الزراعية واستعمار البلاد قيام جماعات مختلفة من الرقيق ، والشركاء فى محاصيل الارض وعمال الزراعة

الفقراء ، كما نجم عنه قيام ثورات ظلت ناشبة الى أن زال حكم الرومان ، وكان الصراع فى سبيل امتلاك الارض يسير جنبا الى جنب مع الصراع فى سبيل الحرية • وظل تكفاريناس أحد زعماء البربر يحارب الرومان سبع سنوات متصلة •

انتشار الدين المسيحى

انتشرت الديانة المسيحية بسرعة فى الجزء الذى احتله الرومان من الجزائر وخاصة فى المدن الكبرى حيث اعتنق الاثرياء الديانة الجديدة ، وأخذ المسيحيون البربر يمتنعون عن الخدمة فى الجيش الرومانى • ونشأت بعض الشيع الخارجة على الدين المسيحى وبدأ صراع دينى تحول الى صراع بين طبقات الشعب طال أمده •

ولكن الامبراطورية الرومانية بدأت فى التفكك والانحلال منذ القرن الخامس ، وساد الاضطراب الجزائر وأخذت القبائل البدوية التى حرمت من أراضيها تهدد المدن والمزارع ، واختل الاقتصاد ، ثم استولت جيوش الفندال على أفريقيا الشمالية بلا حرب تقريبا ، ودخل بعد ذلك البزنطيون دخول الفاتحين وركزوا أقدامهم فى البلاد•

وعادت الامور الى سيرتها الاولى من استيلاء على الاراضى وفرض للضرائب الفادحة ، فتجمعت القبائل تحت امرة الزعماء المحاربين ، وهاجمت مدن البيزنطيين الحصينة ، وامتدت نيران الثورة وساد البلاد الاضطراب ونقصت محاصيل الارض وشلت الحركة التجارية، وعم الكساد وضعفت الحركة الثقافية.وأصبحت الجزائر فى خلال القرن السابع للميلاد على شفا الانهيار التام •

ويجدر بنا قبل اتمام هذا البحث أن نثير مسألة أهملها بعض المؤرخين أو قالوا عنها انها غير قابلة للحل ، فقد شاهدت أفريقيا الشمالية الوسطى فى مدى ١٨ قرنا أنماطا مختلفة من الشعوب

والحضارات ، فقد وفد اليهـا الفينيقيون ، واليهود الفلسطينيون ، والرومان ، والفندال ، واليونان وغيرهم ، وكان لهـؤلاء الوافدين على اختلافهم أثرهم فى ذلك الحين على المجتمع البربرى وحضارته •

وكان لهذه العناصرالمجتمعة دور له شأن فىمستقبلالايام واندمجت اندماجا كليا على الرغم من المصادمات العنيفـة التى سجلها لهـا التاريخ ، وأصبحت جميعها تكون الشخصية الجزائرية التى لاسبيل الى نكران وجودها •

عهـد الحضارة العربيـة

عبر العرب شبه جزيرة سـيناء ودخلوا مصر فى خـلال القرن السابع ، وتوغلوا فى شمال أفريقيا حتى وصلوا الى تونس ، ومنها الى المغرب على سواحل المحيط الاطلسى •

وكما كان الحال مع البربر كذلك لم يكن العرب جماعةمتجانسة، وانما كانت تجمعهم الوحدة السياسـية والدينية ووحـدة اللغة والثقافة •

وكان الفتح العربى كالفتوحات السابقة فتحا غير سلمي وخاصة فى أوائل عهده فلقى مقاومة عنيفة من البربر الذين كانوا يتحالفون أحيانا مع البيزنطيين ، وقد تجسمت هذه المقـاومة فى شـخص « كاهنه » ملكة الاوراس التى قتلت عام ٧٠٢ أثناء المعارك •

وأدخل الفاتحون المسلمون الى المغرب عناصر أربعـة جديدة لها أهميتها وتجانسها ، وهى الدين الجديد ، والجهاز الادارىوالسياسى، والنظام الاقتصادى والاجتماعى ، واللغة الجديدة أيضا ، وأدى هذا الى تحول كبير فى مجتمع شمال أفريقيا بعد أن اعتنق أكثر سكانها الاسلام الذى أصبح بعد ذلك دين أغلب السكان •

وأدى انتشار الدين الاسلامى بسرعة فى أفريقيا الشـمالية الى

ايجاد توازن اجتماعى بين مختلف سكانها بعد فترة من الانحطاط والتأخر ٠

وقد اعترف المؤرخ برنارد المعروف بتحريه للحقائق بأن الاسلام أعلن عن وجود اله واحد ، والمساواة بين جميع المؤمنين ، وعدم التمييز بين فرد وآخر ، وعدم الرضوخ الى سيطرة الاجنبى ، وكان هذا انطلاقا جديدا فى الحياة الاجتماعية ٠

وقد ظهر بوضوح ما أدركه الاسلام من نجاح لدى قبائل البربر على الرغم من المقاومة التى أبدوها فى أوائل عهده ، لان العرب لم يجلبوا دينا جديدا فقط بل أدخلوا أيضا نظاما جديدا للعلاقات بين مختلف الطبقات يتيح الى حد كبير تنمية القوى الانتاجية ٠

وكان العرب حينئذ متفوقين من الناحية الفنية على أهالى العصور الوسطى من الاوروبيين ، فكانوا أصحاب السيطرة على الملاحة فى البحار ، ويتقنون صناعات الجلد والصلب ، وأدخلوا فى بلاد الامبراطورية العربية ثقافات جديدة ، ونشروا وسائل الرى ، وصناعات الحرير والقطن والزجاج والورق ، وبرع العلماء العرب فى جميع النواحى الحسابية وعلموا الناس الارقام الجديدة ، وتوسعوا فى الطب والعلوم الطبيعية ٠

وعمل العلماء والفلاسفة والمؤرخون العرب كابن سيناء وابن رشد وابن خلدون على توسيع مدارك الانسان ومعرفة العالم ونمو الهيئات الاجتماعية ٠

الخوارج :

وبعد مرور قرن واحد على الفتح العربى لجأ الى المغرب ابن رستم الفارسى ، وعمل على نشر مذهب الخوارج ، وأسس فى عام ٧٦١ للميلاد مدينة طاهرة التى أصبحت عاصمة الرستامة الذين امتد

حكمهم الى الشرق وشمل منطقة أوراس ، وكانت هذه المملكة الجديدة على نطاق مملكة ماسينيسا صورة مصغرة لمنطقة الجزائر الحالية فى الوقت الذى قامت فيه الى الغرب مملكة الادارسة (المغرب الحالى) وقامت الى الغرب مملكة الاغالبة (تونس الحالية) ٠

ثم وفد الفاطميون من الشرق فغزوا مملكة الرستميين وهدموا عاصمتهم فى عام ٩١١ ولجأ كثيرون من الخوارج الى صحراء الجزائر الجنوبية وأقاموا فى الواحات وما لبثوا فيها الى يومنا هذا ٠

ثم غادر زعماء الفاطميين تونس وعادوا الى مصر للاقامة فيها ، فعادت ممالك المغرب الى الظهور خلال القرنين العاشر والحادى عشر ، وازدهرت البلاد وبنيت عدة مدن جديدة ٠

وفى خلال الجيل الحادى عشر جرد الخليفة الفاطمى فى مصر حملته المشهورة المعروفة بغزوة بنى هلال لفتح تونس وبلاد المغرب ٠ واشتبك الهلاليون مع سكان الصحراء الجنوبية الذين استولوا على مراكش ، وظلت البلاد تتقلب بين اليسر والعسر والحروب الداخلية حتى القرن الخامس عشر ٠

الجزائر قبل غزو الفرنسيين

فى بداية القرن الخامس عشر كانت بلاد المغرب أو شمال أفريقيا مقسمة الى جمهوريات صغيرة أشبه بامارات على جانب من الاستقلال

وكانت المعارك البحرية مستمرة بين العرب وأهالى السواحل من أوروبا الجنوبية، فكان كل من الجانبين يعمل على أسر أكبر عدد ممكن من ملاحى السفن لبيعهم فى الاسواق واستخدامهم فى شئون الزراعة والبناء ٠

فثار ملك أسبانيا وجرد حملة لغزو أفريقيا الشمالية وفى أوائل

الجيل السادس عشر استولى على المرسى الكبير ووهران وبوجينه ، واخضع مدن مستغانم والجزائر ولم يتمكن من التـــوغل فى داخل البلاد ، فاستجار الجزائريون بالاتراك فبعثت تركيا بقائدها الشهير خير الدين بربروس الذى ثبت سيطرة تركيا على شمال أفريقيـــا وأصبحت تابعة لسلطان اسطنبول ٠

وأصلح بربروس ميناء الجزائر وبنى حاجز الميـنـــاء العظيم الذى لا يزال باقيا الى يومنا هـــذا ، وظلت الجزائر تحت حـكم الاتراك ثلاثة قرون ٠

وأصبحت مدينة الجزائرمركزا عظيما للتجارة ، وبلغ عدد سكانها ٨٠ الفا منهم ٢٥ ألفا من أصل جزائرى، ومن العرب ، ومن اللاجئين من أسبانيا ، ومثل هذا العـدد من الاتراك والمسيحيين و٥٠٠٠ من اليهود عدا ٢٥ ألف أسير من الاوروبيين ٠

وخلف خير الدين بربروس ابنه حسن باشا المعروف فى التاريخ باسم بيلر بك وكانت والدته جزائرية ٠ ورسم بيلر بك وخلفـاؤه الحدود بين تونس ومراكش ، وفى القرن الســـابع عشر خرج نائبا الملك فى تونس والجزائر عن طاعة السلطان وأصبحا يلقبـــان بداى الجزائر وباى تونس ٠

وازدادت المبادلات التجارية بين الولايات الافريقية ، وبينها وبين أوروبا على الرغم عن حروب القراصنة المستمرة من الجانبين ، وعاونت الجزائر فرنسا فى الجيل الثامن عشر بأن قدمت للجمهورية الفرنسية قروضـــا بدون فائدة ابان حروبها فى أوروبا وزودتهـــا بالحبوب فتمكنت من القضاء على المجاعة التى كانت تهددها اذ ذاك ٠

وفى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر انهارت الحالة الاقتصادية ، ففرضت ضرائب أثقلت عاتق الشعب وكان الجباة

من الجنود المأجورين يستعملون العنف فى جبـاية هذه الضرائب فأدى ذلك الى قيام ثورات بمنطقتى القبائل ووهران ، وأصبح حاكم الجزائر تحت رحمة دول اوروبا الكبرى التى سمت الى مده بالمال ، وأخذ نفوذ الاوروبيين يزداد منذ ذلك التاريخ .

لكن الدعاية الاوروبية المغرضة تبريرا لتدخل فرنسا فى الجزائر تدعى أن العداء كان مستحكما بين اوربا والجزائر فى عهد السيطرة التركية ، وفات هذه الدعاية أنه من بين جميـع الدول المسيحية الاوروبية كانت فرنسا هى الدولة الوحيـدة التى تربطهـا أوثق العلاقات بالجزائر ، وكانت المصلحة التجارية متقـدمة على جميـع الاعتبارات الاخرى الدينية والاجتماعية . وعمد المؤرخون الرسميون الى تسويد صـفحات الجزائر واظهار فســاد الحكم فيها وانهيار اقتصادها فى أوائل القرن التاسع عشر لكى يحملوا النـاس على اطراء الاستعمار الفرنسى .

ومما يكذب هذه المزاعم ما كتبه م. روزيه فى كتابه « جولة فى الجزائر » الذى طبع عام ١٨٣٣ وكان روزيه عضوا فى جمعية التاريخ الطبيعى والجمعية الجيولوجية فى فرنسا وخدم فى الجيش الافريقى .

فقد وصف حالة البلاد كما بدت له عنـد نزول الفرنسيين فى الجزائر عام ١٨٣٠ ، وأشاد فى وصف بساتين البرتقال الواسـعة الممتدة الى شمال وجنوب وشرق مدينة بليدا ، وأشـار الى العناية التى يبذلها الاهالى فى استغلالها ، وذكر حقول الحنطة وزراعة الارز على أوسع نطاق ممكن ، ثم وصف أعمال البناء العظيمـة والقناطر التى كانت تبنى لجلب مياه الرى من الاماكن النائية . واشـار الى نظام المجارى المقام تحت أرض المدينة لنقل المياه القذرة ومخلفـات المراحيض الى البحر .

وأطرى روزيه نظافة المسـلمين ومواظبتهم على غســل منازلهم

وتنظيف رخامها الابيض الناصع • وذكر تسامح المسلمين وحرية الديانات وكيف أن المسيحيين كانوا يحتفلون بأعيادهم ويقيمون مشاعر دينهم في الشوارع العامة ، وكانت لهم كنيسة في احدى المباني الحكومية ، وقال أيضا أن أهالي الجزائر أكثر ثقافة من البربر، وكان في مدينة الجزائرمائة مدرسة عامة وخاصة ، وأثنى روزيه على نباهة الطلبة والشبان الجزائريين الذين كان مدرسوهم يعاملونهم بعطف وكرم أخلاق لم يكن يشهد نظيره في مدارس فرنسا •

هكذا كان الجزائريون الذين قيل لنا أنهم برابرة متوحشون يجب علينا أن نتولى تمدينهم ، وهذا ما كانت عليه الجزائر عشية الغزو الفرنسي • وأمام هذا المجد التليد لايستطيع الانسان أن يكتم غضبه وكراهيته للذين لايزالون متمسكين بأوهام الدعاية الكاذبة سترا لاطماعهم الاستعمارية الفاشمة •

ان هذا البلد الغني بثقافته وتقاليده ، الفخور بشعبه الأبي الشجاع الذي يواصل الكفاح في سبيل تحقيق وحدته لا بد ان يصل الى الهدف الذي يصبو اليه لان ماضيه المجيد هو خير كفيل بالمستقبل الزاهر •

الفصل الثالث

الغزو الفرنسى والاستعمار الاوروبى

دأبت البورجوازية الفرنسية على استعمال طريقتها الديكتاتورية فى فرض برامج التعليم منذ قيام الجمهورية الثالثة لكى تلقى فى روع الطلبة الناشئين أن أسباب فتح الجزائر تعود الى حكاية « ضربة المروحة » .

وقد ورد فى أحد الكتب المنتشرة فى المكاتب العامة ذكر هذا الحادث كما يلى :

فى عام ١٨٢٧ كلف القنصل الفرنسى ديفال بأن يوضح لحاكم الجزائر أسباب التأخير فى سداد أحد القروض فضربه الحاكم حسين بيد «المنشة» وأمام هذه الاهانة الموجهة لممثل فرنسا طلب الملك شارل العاشر اعتذارا وتعويضا قوبلا بالرفض .

هكذا كتبوا التاريخ وعرضوه على العالم ولكن منذ ٣٠ سنة أخذ بعض المؤرخين الذين يقدرون الحقائق يذكرون الحقيقة معتمدين على الوثائق التاريخية الموجودة فى المحفوظات الرسمية .

كانت الجزائر قد سلمت فرنسا كميات كبيرة من الحبوب وخاصة أثناء حروب الثورة الفرنسية وفى عهد الامبراطورية ، وتم تسليم هذه الحبوب بواسطة باكرى وبوزناخ ، وهما تاجران من ليفورنو فى ايطاليا توصلا للحصول من داى الجزائر على شبه امتياز باحتكار التجارة الخارجية للبلاد . وكان هذان التاجران يمنحان عملاءهما من الفرنسيين آجالا طويلة مقابل اتفاقات ادارية وسياسية تتيح لهما زيادة قيمة مطلوبيهما بضمانة الدولة وكان تاليران وزير خارجية فرنسا يحبذ هذه الصفقات ويوافق عليها ، وكان لحاكم

للجزائر نصيب فى هذه الديون بوصفه ممثل البلاد الاعلى . ولما أرادت الحكومة الفرنسية تصفية هذا الدين فى عام ١٨١٩ اعترفت بحقوق الدائنين الايطاليين ولم تعترف بأى حق لحاكم الجزائر ولم تابه بمطالبه على الاطلاق .

وهنا تدخل ديفال القنصل الفرنسى فى الوقت الذى كان يستطيع فيه حاكم الجزائر المعارضة والالتجاء الى المحاكم الفرنسية . ولكن ديفال صديق التاجر الايطالى باكرى وشريكه فى هذه الصفقات « تناسى » ابلاغ الحاكم عن المواعيد التى يسقط فيها حقه بالمطالبة . وقد فضح النواب الفرنسيون الاحرار ألاعيب ديفال واستنكروها، ولا بد لنا هنا من أن نذكر نبذة صغيرة عن ديفال كما رواها ش.١٠ جوليان فقال :

ان ممثل فرنسا كان معروفا لدى الجميع ، لا فى الجزائر فقط بل فى موانىء أوروبية كثيرة ، بأنه رجل مريب يجب اتخاذ جميع أسباب الحذر فى معاملته وكانوا يتهمونه فى الجزائر بفتح دور البغاء السرى للاتجار فى الرقيق الابيض فأدى ذلك الى اتخاذ زملائه الدبلوماسيين قرارا باخراجه من السلك الدبلوماسى .

وقالت غرفة تجارة مرسيليا عنه : انه يملك القليل من الضمانات المعنوية التى تجعل التعامل معه متعذرا .

هذا هو الرجل الذى يدللون بعظمته وشممه أمام الاهانة ، ويصورون للشعب ضربه بالمروحة على أنه اهانة كبرى موجهة لشخص الدولة الفرنسية فى ممثلها الشريف الأبى .

لقد علم حاكم الجزائر انه كان ضحية محتال كبير ، وان ديفال بالاتفاق مع باكرى التاجر الايطالى قد سخرا منه فطلب من حكومة فرنسا أن تستدعى قنصلها ديفال وكتب يقول انى لا استطيع رؤيته

هنا فى قصرى ، ولم يتلق الداى حسين ردا على طلبه ، وحدث بعد ذلك أن حضر ديفال لمقابلته وكان يقف أمامـــه متعجرفا متحديا ، فثارت ثائرة حاكم الجزائر وضربه بيده « المنشة » .

هذه هى الاهانة الكبرى الموجهة لفرنسا ورأى الحاكم ألا يعتـذر عنها . وقد ظهر من الوثائق التىجمعها المؤرخون بعد ذلك أنحاكم الجزائر لم يكن ينوى اهانة فرنسا ، بل قصد فقط شخص القنصل بوصفه رجل أعمال مزدرى . ومما يلاحظ أنهبعدمرور ثلاثسنوات على هذا الحادث أى فى ٣١ يناير عام ١٨٣٠ قررت فرنسا التدخـل المسلح فى الجزائر ، وهذا التأخير له مغزاه الخاص ! ، فلمـــا تولى بولينياك رياسة وزارة فرنسا كان الاستياء العام يســود البلاد . ففكر الملك فى تحويل أنظار الشعب واتخذ من حادث الجزائر ذريعة للخروج من المتاعب والقيام بعمل يحفظ كرامته ، وكان هـــذا هو السبب الاصيل فى شن حملة الغزو التى قال عنها مترنيخالسياسى النمسوى العظيم :

« ليس من المعقول أن تنفق فرنسا ١٠٠ مليون وتضحى بحيـاة ٤٠ ألف رجل من أجل « ضربة مروحة » » .

ولنبحث الآن عن الاسباب الجدية لهذه الحملة ...

منذ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ قامت فى فرنسا طبقة جـديدة من الشعب عرفت بالطبقة البورجوازية واستولت على مقاليد الحكم .

وقد قضت البورجـوازية فى فرنسا على دولة الاقطـــاع وثبتت مراكزها سياسيا واقتصاديا ، وساعدت حروب نابليون على نشر الصناعات كما عملت على ارضاء الطبقات بمحافظتها على فتوحاتها فى الخارج ، وسعت الى التوسع فى الجزائر بدافع الحاجة الى أســـواق جديدة ، وانقلبت حملة التأديب التى شنتها ضـد الجزائر الى حملة غزو واسعةالنطاق . وبعد أن كانت الحكومة الفرنسيةفى عام ١٨٣٠

تعمل على خفض عدد القوات المرسلة للجزائر الى أدنى حـد ممكن انتهى الامر بدعوة الجنرال كلوزل قائد الحملة للعودة الى فرنسا قام تييرس رئيس جمهورية فرنسا فى عام ١٨٤١ بمد الجنرال بوجو بوسائل وامكانيات ضخمة ، وظل الجنرال بوجو طيلة ست سنوات يتمتع بثقة الحكومة الفرنسية ، وبحرية العمل ، وبموارد وفيرة من كل نوع طالما حرم منها القواد السابقون • وبعد أن كان بوجو معارضا للفتح أصبح من أشد أنصاره ومن أعظم المتحمسين والمؤيدين للاستعمار ، بل من الداعين الى سيطرة فرنسا التامة عسكريا وسياسيا على الجزائر للحصول على مواردها الطبيعية وما فيها من المواد الاولية الضرورية للصناعة الفرنسية •

وقد كتب بيجو فى احدى مذكراته عام ١٨٤٢ أن الجزائر ستظل زمنا طويلا محتاجة لمنتجات الصناعة الفرنسية مقابل ما لديها من المواد الاولية ، ولن يستطيع المستعمر الفرنسى أن يستخرج من أرض الجزائر الزيت والحرير والتبغ والقطن والفلين قبل أن تستكمل السيطرة الفرنسية على البلاد •

وبعد أن أوضح بوجو هذه الاسباب لتبرير فتح الجزائر ، وبعد أن فرض سيطرة فرنسا بالقوة سلم البلاد اقتصاديا الى أصحاب المصارف الفرنسيين

الغـــزو

فى يوم ١٤ يونيو عام ١٨٣٠ نزل الى سيدى فروش جيش فرنسى قوامه ٣٠ ألف رجل بقيادة الكونت دى بورمون ، وهو الرجل المكروه المزدرى به بسبب هروبه من معركة ووترلو •

ووصلت القوات الفرنسية الى مدينة الجزائر فى أوائل شهر يوليو وضربت المدفعية الفرنسية حصارا شديدا حول المدينة ، فاضطر الحاكم الى تسليم المدينة يوم ٥ يوليو وتعهد بورمون بضمان سلامة الحاكم والاهالى وحرية اقامة شعائرهم الدينية واحترام حريتهم وصيانة

أملاكهم وأموالهم وتجارتهم وصناعتهم والمحافظة على كرامة السيدات

وسرعان ما نكث الفرنسيون بعهودهم فانه لم تكد القوات الفرنسية تدخل الى محلة القوصبية فى المدينة حتى هاجم الجنود مقر الحاكم ونهبوا كل محتوياته واستولوا على جميع أموال الدولة بطريقة اشمأزت لها النفوس وكانت فضيحة كبرى استنكرتها الصحف العالمية الحرة فى ذلك الحين •

وظن بورمون أن استيلاءه على مدينة الجزائر سيتيح له التوسع فى فتوحاته ولكن بعض القوى الاستطلاعية التى بعث بها الى النقط المجاورة واجهت مقاومة عنيفة أدرك منهـا بورمون مدى خطئه وما يعترضه من متاعب وعراقيل •

ولما عادت الملكية الى فرنسا فى شهر يوليـه تم تعيين الجنرال كلوزل خلفا لبورمون فاتجهت الفكرة الى الاكتفاء بالسيطرة على جزء من الجزائر مؤقتا ثم تحولت النية الى الفتح الكامل • وكانت هذه الحرب صراعا مريرا طال عليه الزمن وتوالت خلاله المعارك العنيفة وأدرك الغزاة قوة الشعور القومى لدى الشعب الجزائرى وعنف مقاومته للغزو والحق يقال ان فتح الجزائر لم يتم الا فى عام ١٨٨٠ و١٨٩٠ بعـد احتلال منطقة مزاب والواحات الجنوبية وهكذا استمرت الحرب فى الجزائر ٥٠ سنة تقريبـا تتخللها فترات من الهـدوء النسبى كانت بمثابة السكون الذى يسبق العاصـفة المتجددة ، وكان كل هـدوء لا يلبث أن يعقبه انفجار أشد مما سبقه وظلت المقاومة الى ما بعـد الفتح • وخلافا لما يدعيه بعض المؤرخين اشترك فى هذه الحرب جميع أهالى الجزائر على اختلاف عناصرهم من جزائريين وعرب وبربر وبدو ، من سكان الصحارى الغربية وأهالى منطقة القبائل وسكان جبال الأطلس واوراس وأهالى المدن والقرى •

وتولى الزعيم الجزائرى الامير عبد القادر قيادة هذه المعارك ١٥ عاما بدأت من عام ١٨٣٢ حتى عام ١٨٤٧ ، وكانت منحصرة فى منطقة وهران الى عام ١٨٣٥ ولكن فى عام ١٨٣٩ ثار شعب الجزائر ثورة عامة وسارع الى حمل السلاح ضـد الفرنسيين وخاصـة فى المناطق

الشمالية وأصبح الفرنسيون محصورين فى مدينة الجزائر يتوقعون أن تحل بهم كارثة كبرى • فبادرت الحكومة الفرنسية بتعيين الجنرال بوجو حاكما عــاما على الجزائر لنشر الســلام في الغرب والقضاء على قوات عبدالقادر • وفشل بوجــو فى مهمته • وفى عام ١٨٤٥ تولى الامير عبدالقادر قيادة الثورة الكبرى التى امتدت من حــدود مراكش الى منطقة القبائل التى التجأ اليها الامير وقدمت له المساعدة العسكرية الكاملة •

وفى الوقت نفسه وجه الفرنسيون قواتهم الى الشرق أثناء هــذه الاعوام الخمسة عشر وكانت أول حملة أرسلوها الى قسطنطينة فى عام ١٨٣٦ فمنيت بهزيمة ساحقة •

واستأنف الفرنسيون حملتهم فى العام التالى وواجهتم مقاومةعنيفة فى مدينة قسطنطينة التى اضطروا الى الاستيلاء عليها منزلا منزلا • وتوالت المعارك الى عام ١٨٤٧ عندما اضطر الامير عبد القادر الىالتسليم أمام قوات المستعمرين المتزايدة وأسلحتهم الحديثة ومواردهم التى تزيد على موارد الجزائريين •

وأخذ الجيش الفرنسي يعمل على استكمال فتح البلاد ، ولكنأهالى زيبان واوراس والواحات ثاروا فى وجهه عام ١٨٥١ ، وحاولت فرنسا فى هذه السنة احتلال منطقة القبائل وتطلب هذا قيام معارك لا حصر لها ظلت ناشبة مدة سبع سنوات انتهت عام ١٨٥٧

وفى عام ١٨٥٩ ثارت قبائل الاطلس وبنى سناسن ثم ثارت قبائل ولد سيدى شيخ فى عام ١٨٦٤ وظلت الحــرب دائرة فى مناطقهم أشهرا عديدة •

وعاد أهالى منطقة القبائل الى الثورة عام ١٨٧١ وشبت الثــورة الكبرى التى تزعمها المقراني واشترك فيها ٢٠٠ الف من الجزائريين في محاربة الفرنسيين من ساحل البحر الي الصحراء •

وفى عام ١٨٨٢ ثار أولاد سيدى شيخ مرة أخرى قبل أن يجازف

الفرنسيون في الوصول الى القليعة جنوبا ولم يتمكنوا من احتلالها الا في عام ١٨٩١

وقد استخدمت فرنسا في حروب الجزائر مائة الف جندي وهو رقم ضخم اذا علمنا انه يعادل ثلث الجيش الفرنسي ، ومنيت القوات الفرنسية بخسائر جسيمة في المعارك عدا الذين قضوا بسبب المرض ويقول أحد المؤرخين ان القضاء على ثورة الامير عبد القادر الجزائرى كلف فرنسا نحو ٤٠ ألف رجل

ولابد لنا من المقارنة بين الماضى والحاضر فنقول انه اذا كان فتح الجزائر فى ذلك الحين تطلب ١٠٠ الف رجل على الرغم من ضعف الفنون العسكرية فى ذلك الوقت فلابد لنا أن ندهش اذا علمنا أن فرنسا اليوم تخصص جيشا عظيما مؤلفا من ٥٠٠ ألف جندى مزودين بأحدث الاختراعات الحربية الحديثة ، وبأضخم الوسائل العسكرية لمحاولة القضاء على قوات الشعب الجزائرى الثائر ٠

واذا فرضنا فى الوقت نفسه أن عدد سكان الجزائر زاد اليوم اربعة أضعاف ما كان عليه أيام الغزو الفرنسى ، فهذا لا يعنى انه يجب أن تزداد قوة فرنسا بهذه النسبة للمحافظة على الجزائر تحت سيطرة الاستعمار الفرنسى الغاشم ٠

ان المقاومة الجزائرية لم تكن ممثلة فى أشخاص وزعماء معدودين، ومع أن أبرز هؤلاء الزعماء هو الامير عبد القادر فلا بد لنا من ذكر أسماء أبطال المقاومة المشهورين مثل ابن علال نائب عبد القادر ، وابن سالم خليفة منطقة القبائل والباى احمد باى قسطنطينة والقائد ابن عيسى والمقرانى وأخيه بو فوراق

وقد برزت من صفوف الشعب الجزائرى شخصيات امتازت بالبطولة والتضحية مثل فاطمة الجزائرية التى باهى الفرنسيون بأسرها عام ١٨٥٧ وكانت فاطمة تدرب الشبان على مقاومة قوات الجنرال ماكماهون وعرف هؤلاء الشبان الفدائيون باسم « المسبلين » أى المتطوعين للموت ٠ ويقدس الجزائريون ذكرى فاطمة ويعتبرونها من بطلات المقاومة الوطنية ٠

الفصل الرابع

فظائع الفرنسيين

ضاقت السبل فى وجه الفرنسيين بعدما تمكن الامير عبد القادر من جمع كلمة الجزائريين ، فاضطر الجنرال بوجو الى تغيير خططه واتباع طريقة جديدة هى « حرق الارض » وتدمير كل ما عليها •

وفى خلال عامين كاملين ١٨٤٢ و ١٨٤٣ اجتاحت قوات بوجوغرب الجزائر ودمرت المدن ، وأتلفت الزرع والضرع وكان عملها أشبه بحركة تدمير واسعة النطاق لاتمت لاى عمل عسكرى معروف بأية صلة •

وكتب المؤرخ جوليان شهادة أدلى بها الكولونيل مونتانياك فقال :

« جمعنا الجنرال بوجو قبل خروجنا للحرب وقال للضباط ان الحرب التى تقومون بها ليست حربا تقوم على اطلاق النار فقد اعتدت قواتنا على المساجد والقبور وامتد عدواننا الى المنازل التى يعتبرها المسلمون حرما مقدسا وكنا نعذب الناس بناء على الشك والريبة دون اية محاكمة ••• وقتلنا عددا كبيرا ممن يحملون تصاريح خاصة منا لشكنا فى سلوكهم كما فتكنا بعدد كبير من الاهالى دون اى سبب موجب • وظهرت بعد ذلك براءتهم وانه لا علاقة لهم بالثائرين ، ودفعنا الى المحاكم بشخصيات كبيرة كان الشعب الجزائرى يقدسها ويضعها فى مصاف الاولياء ، وفتكنا بكثيرين من الاعيان الذين كان يدفعهم مركزهم وشجاعتهم الى التوسط لدينا للكف عن الاذى •

والقينا فى غياهب السجن بزعماء القبائل لان بعض افرادها ساعد الثوار ••

لقد استعملنا الخيانةووصفناها بأنها مفاوضات وجعلنا من الكمائن اعمالا دبلوماسية وبالاختصار تفوقنا على البرابرة بما قمنا به من اعمال

الوحشية وأظهرنا من الانحطاط والتوحش وفساد الاخلاق ما لايمكن ان يكون لدى الذين ادعينا اننا جئنا لتمدينهم ٠٠ ثم اخذنا نتلعر من اننا لم ننجح في تلقينهم اخلاقنا ومبادئنا ٠

وجاء فى التقرير الرسمى الذى قدمه الجنـــرال بوجـــو الى وزارة الحربية بتاريخ ١٧ مايو ١٨٤٤ عن عملية حربية تمت فى منطقةقريبة من وادى ايسر

«لقد نهبناودمرنا أكثر من٥٠ قرية من أجمل القرى :منازلها مبنية بالحجارة واسقفها من الطوب ٠ واستولى جنودنا على كميات كبيرة من المسلوبات ولم نفكر في قطع الاشجار أثناء المعركة لان كثرة هــذه الاشجار تتطلب عمل ٢٠ الف رجل مسلحين بالفئوس يعملون ستة أشهر ٠٠٠ وهكذا اعتذر الجنرال بوجو بأنه لم يستطع تدمير البلاد كما تقتضيه خطته الفنية ٠

وكتب المؤرخ كريستيان سكرتير الجنرال بوجو عن الفترة التى قضاها دوق دى روفيجو في حكم الجزائر من عام ١٨٣١ الى عام ١٨٣٣، عندما أمر بقتل جميع أفراد قبيلة العوفية ، فقال كريستيان :

خرجت قوة من الجزائر ليلة ٦ ابريل عام ١٨٣٢ وفاجأت رجال القبيلة نائمين فى خيامهم وذبحنا أفراد القبيلة وابدناهم عن آخرهم وعاد رجالنا من هذه الحملة الوحشية رافعين رؤوس القتلى على رؤوس الحراب ٠٠

وبيعت الماشية والاغنام التى كانت تملكها القبيلة الى قنصل الدنمرك وعرضت المسلوبات فى سوق باب عزوم ، وكان بين هذه المسلوبات مصوغات ذهبية حول معاصم النساء المقطوعة وأقراط لا تزال معلقة بشحمات الآذان وتمت قسمة الثمن بين الجنود القتلة ، وصدر أمر يومى بعد هذا العمل الوحشى يعلن ارتياح الجنرال للبطولة والنباهة التى أظهرها الجنود ٠ ولم يكتف القائد بذلك بل امر العرب بايقاد المشاعل فوق حوانيتهم اعلانا لفرحهم بهذا الانتصار العظيم !!

وقال المؤرخ : انه سمع أحد الضباط يقول انه كان كثيرا ما يتناول طعام الغداء مع الجنرال دون أن يفكر فى أن فى أحد أركان الخيمة عددا من الاكياس يمتلىء برءوس العرب المقطوعة وهى معدة لشحنها الى فرنسا •

وقال الكولونيل مونتانياك في رسائله يشرح أعمال البطولة ، وقد قتل فى معركة طفته فى عام ١٨٤٥

« تسالونى ماذا نعمل بالنساء اللواتى نأسرهن •• اننا نحتفظ ببعضهن كرهائن ، ونبادل بعضهن بعدد من الخيل ثم نبيع الباقيات بالمزاد العلنى كالسوائم والمواشى »

« وهذه هى الطريقة التى يجب أن نحارب بها العرب ••• قتـل جميع الرجال من سن ١٥ الى ما فوق ، والاستيلاء على جميع النساء والاطفال وارسالهم الى جزر مركيز أو أى مكان آخر •• وبالاختصار القضاء على كل من لا ينحنى كالكلب تحت أقدامنا •

(وهذا ما كتبه الكولونيل مونتانياك فى رســالته المؤرخة ١٥ مارس عام ١٨٤٣)

وكتب المارشال دى سانت ارنو صانع الانقلاب الفرنسى يوم ٢ ديسمبر فى الرسائل التى كان يوجهها الى عائلته فقال :

« لقد أحرقنا ودمرنا كل شىء فى بلاد بنى مناصر التى تعد من أجمل ما شاهدته فى أفريقيا ••• وانى أقوم اليوم بتفريغ الشون واحراق القرى •

وكتب لزوجته يقول : « لقد تركتنى عند قرى قبائل البراز التى أحرقتها كلها ودمرتها وأنا اليوم عند الســندجاد التى أتبعتهـا بأخواتها ••

ولما كان العــرب يحتمون فى المغارات أرسـل المارشال بوجو الى الكولونيل بليسيه الامر الآتى :

أورليانس فيل يوم ١١ يونيو ١٨٤٥ « اذا ظل هؤلاء المثام معتصمين

في المغارات فاعمل ما يجب لاخراج الثعالب من جحورها ، اخنقهم بالدخان ... »

وتم خنق العرب في المغارات وزاد عدد الجثث الى ٨٠٠ ثم بلغ الفا ولم يطمئن الكولونيل بليسيه الا بعد أن أرسل رجلا من قبلهواخرجوا أمامه من احدى المغارات ٦٠٠ جثة عدا الجثث التي كانت متراكمة في الخارج ، وكانالاطفال يختنقون مختبئين في أحضان الامهاتوبعضهم رئي مختنقا وهو يرضع ثدي أمه .

وعمد سانت ارنو بعد ذلك الى سد باب احدى المغارات بالحجارة فدفن في داخلها ١٥٠٠ من العرب بينهم عدد كبير من النساء واطفال .

وكان القواد الفرنسيون يتباهون بهذه الاعمال ويعدونها من البطولات المجيدة ولم يشذ عن هذا المبدأ واحد منهم سواء أكان ملكيا أم جمهوريا أم من أنصار نابليون .

وقال سانت ارنو بعد الاستيلاء على قسطنطينة « لقد بدأ الجنود بالنهب ثم حذا الضباط حذوهم وظهر بعد الجلاء عن قسطنطينة ان حصة الضباط وهيئة أركان الحرب من المسلوبات كانت أكبر من حصة الجنود »

ومما يذكر انه كلما تحركت قوة من الجيش للقيام باحدى العمليات كان يتبعها جماعة من الانتهازيين والمنتفعين والمضاربين ليشتروا كل ما يمكن أن يبيعه الجنود من المسلوبات ، وكانوا أحيانا يشترونالمنازل بأبخس الاثمان ويمتلكونها بعد ذبح أصحابها .

ولابد لنا هنا من ذكر الكلمة التي قالها الكاتب الفرنسي جول جيد : وهي أن الاستعمار سلب ونهب وسفك دماء وكلها جرائم ترتكب ضد شعوب آمنة لمصلحة حفنة من الرأسماليين الجشعين .

حكم المدنيين

ولما تولى المدنيون الحكم بدلا من العسكريين لم يغيروا أساليبهم ازاء الشعب بل كان الحال على العكس ، وقد ظهر ذلك بوضوح من ثورة

القبائل عام ١٨٧١ بزعامة المقراني أحد زعماء القبائل الذى قال ان الثورة كانت شعبية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ·

لقد كانت حركة القمع التى قام بها الجيش الفرنسى عنيفة مطبوعة بالقسوة والوحشية ، كما كانت حركة القمع القضائية التي تولتها المحاكم تنم عن الكراهية العنصرية الى أقصى حد ممكن · فقد تولى المستعمرون الفرنسيون رياسة المحاكم بدلا من القضاة وجعلوا من أنفسهم هيئات محكمين وأصدروا أحكاما لا تمت الى القانون والعدالة بصلة ·

فالذين اعتبروا محاربين فرضت عليهم غرامات حرب قدرت بمبلغ ٣٦ مليونا ونصف المليون من الفرنكات الذهبية والذين اعتبروا من أهالى البلاد الثائرين تم الاستيلاء على ٥٠٠٫٠٠٠ هكتار من أجود أراضيهم ·

وعلى هذا استمر الحكم الاستعمارى مسيطرا على البلاد بهيئاته السياسية وحكومته المدنية دون أن يغير شيئا من وسائل القمع العسكرى الوحشية التى أصبحت طابع الاستعمار حتى اليوم بينما طابع العرب ما يزال السماح والعفو

ومن الاعمال التى تشرف الجزائريين وقائدهم العظيم الامير عبد القادر الجزائرى ما كتبه سانت ارنو فى رسالة مؤرخة يوم ١٤ مايو عام ١٨٤٢ قال فيها :

« لقد أعاد لنا عبد القادر جميع الاسرى الفرنسيين بدون قيد ولا شرط . وقال لهؤلاء الاسرى انه لم يبق عندى طعام لكم ولا أريد قتلكم فعودوا من حيث جئتم ·

وقال سانت ارنو : انها بادرة كريمة من مثل هذا الرجل الذى دوخ فرنسا وكبدها ٤٠ ألف قتيل ·

ولسنا هنا فى موقف سرد المبررات المعنوية لان أهم ما يعنينا هو ادراك الاسباب التى أدت الى تغيير الحقائق التاريخية وفهم الحجج التى يقدمها هذا الشعب الذى عاملته فرنسا معاملة العدو طيلة ١٢٨ عاما ·

الفصل الخامس

مراحل الاستعمار الاوروبى والتوسع فى السيطرة السياسية

فى يوم ٢٢ يوليو عام ١٨٣٤ صدر مرسوم ملكى فى باريس يعلن أن الجزائر من الممتلكات الفرنسية ، واقامة حكومة عامة فى هذه البلاد ٠

واذ ذاك تصرف المرشال بوجو تصرف الدكتاتور مطبقا النظريات العسكرية عمليا ، فقسم الجزائر الى ثلاث ولايات ، وحدد بعض الاراضى للمدنيين وخصصها للمعمرين الاوروبيين تحت اشراف موظفين مدنيين ، كما حدد مناطق « عربية » تشمل الجزء الأكبر من الجزائر تولى ادارتها ضباط فرنسيون

ووحد بوجو من حرية تملك الاراضى للمدنيين لانه أراد الاحتفاظ بها لجنوده ، فنشأ بسبب ذلك صراع وخصومات بين المدنيين والعسكريين ، وقد طال أمد هذا الصراع ونشأت منه متاعب عديدة ٠

وكانت جهود بوجو منصرفة الى قمع مقاومة الشعب الجزائرى ، و « السيطرة على العرب » حسب تصريحاته وعدم المبالاة بشئون الاوروبيين المعمرين « الكولون »

فأنشأ ادارة لشئون العرب ، وأقام فى كل دائرة عسكرية مكتبا عربيا ، وكان يتولى ادارة هذه المكاتب ضباط متمتعون بسلطات غير محدودة ٠ وكان لهذه المكاتب أسوأ الاثر ، وظلت شهرتها المظلمة حتى بعد رحيل بوجو بزمن طويل ٠

وكتب أركمان وشاتريان عن هذه المكاتب فقالا : « ان من يتاح له تولى منصب رئيس مكتب عربى سرعان ما كان يقوم بوفاء ماعليه

من ديون ، وتظهر عليه أسباب النعمة والغنى بعد أن يكون قد فقد جميع ما يملك فى نوادى القمار وبيوت الدعارة ٠

وكان عملاء الاتصال الذين يؤلفون شبكة خاصة ألفها بوجــو لتكون همزة الوصل بين الحكومة والشعب ، يتولون جباية الضرائب ويرتشون ويفرضون على الاهالى رسوما لا طـــاقة لهم بأدائهـــا ويسخرون الشعب فى أعمال مرهقة لمصلحة الجيش

هجرة الاوروبيين

فى سنوات الفتح الأولى كانت حركة الهجرة الى الجـــزائر من أوروبا بطيئة جدا ، فلم يكن عدد الاوروبيين المدنيين يزيد عن ثمانية آلاف شخص فى عام ١٨٣٣

فقامت الحكومة بجلب عدد من الالمان والســـويسريين الذين لم يتمكنوا من الهجرة الى أمريكا ٠٠ وكان استيلاء هؤلاء القادمين على الاراضى يتم دون قيد أو نظام بعد أن ألغى قانون التمليك السابق ولم يحل محله أى قانون جديد ، فكان القوى بقوته والمحتال بحيلته وكل بما لديه من وسيلة ونفوذ يستولى على ما يشاء من الارض ٠٠ فاضطر أهالى البلاد الى مغادرتها الى منطقة الامير عبد القادر ، فبارت الاراضى العربية المزروعة وحلت محلها أراضي الاوروبيين ، وقضى الدمار الذى قام به بوجو على ما بقى من الاراضى الزراعية العربية فنشأت أسطورة الاراضى القاحلة التى توصل الفرنسيون بعد ذلك الى جعلها أرضا صالحة للزراعة ٠٠ وبلغ عدد الاوروبيين فى الجزائر ٢٥٫٠٠٠ شخص فى عام ١٨٣٩ وكان أكثرهم من الفرنســـيين والمالطيين والاسبان ، ومنذ عام ١٨٤٠ الى ١٨٤٥ بدأ ظهور المراكـــز الاستعمارية والمزارع الواسعة فى مناطق متعددة ٠

ويوم رحل بوجو عن الجزائر كان عدد الاوروبيين فيها ١١٠٫٠٠٠

شخص ، منهم ٤٨٫٠٠٠ فرنسى و ٩٠٠٠ ألمانى و ٩٫٠٠٠ ايطـالى و ٩٫٠٠٠ مالطى و ٣١٫٠٠٠ أسبانى ٠ وقد فشلت طريقة بوجو فى تمليك الارض للجنود ونجح المدنيون فى استثمار الاراضى الزراعية نجاحا ملحوظا ٠ واهتمت الجمهورية الثانية التى أعلنت فى فرنسا بتحقيق رغبات المعمرين المطالبين بضم الجزائر لفرنسا ، وامتداد أثر القوانين الفرنسية الى الجزائر وكانت هذه القوانين نافذة فى مناطق المعمرين المدنيين ولا تشمل الاهالى المسلمين الخاضعين لنظام خاص

وعلى هذا الاساس اعتبر دستور فرنسا الجزائر أرضا فرنسيـة بموجب دستور عام ١٨٤٨ الذى سمح لاصحاب الاراضى الفرنسيين فى الجزائر دون الاهالى الاصليين بأن يكون لهم ممثلون فى المجلس التشريعى الفرنسى بباريس ٠

وأرسلت فرنسا عددا من العمال الثوريين الى الجـزائر ومنتهم بأرض ومنازل وحياة مرفهة ، لكى تتخلص من متاعبهم فى فرنسا، فوفد منهم ١٢٫٥٠٠ لم يجدوا لهم مأوى سوى خيام وأكواخ فى معيشة سيئة قضت على عدد كبير منهم ٠ والذين نجوا من الهلاك عمدوا الى تشييد قرى عديدة فى منطقة وهـران ٠ وبلغ عـدد الاوروبيين فى الجزائر عام ١٨٥١ نحو ١٣١٫٠٠٠ شـخص كان ٢٥٫٠٠٠ منهم يعيشون على الزراعة ٠

الاستعمار الرأسمالى

بدأ الاستعمار الرأسمالى فى عهد الامبراطورية الفرنسية الثانية، وانتشر هذا الاستعمار ضد مصلحة الاهالى العرب وضد مصلحـة صغار أصحاب الاملاك الاوروبيين ٠

وكان النظام الامبراطورى يحبذ نصرة البورجوازية صناعياوماليا، فنشأت المؤسسات المصرفية الكبرى فى عام ١٨٥٢ وكان لاختراع

السفن البخارية أثره العظيم فى نشاط تجارة الاستعمار • وشجع الجنرال راندون حاكم الجزائر العام قيام الجمعيات الزراعية الكبرى والتنقيب عن المعادن ، وهذا التوسع من جانب المستعمرين كان له رد فعل سوء فى أهالى البلاد الذين اضطروا الى الالتجاء الى المناطق العسكرية الضيقة والقاحلة فنشبت على أثر ذلك المجاعة الكبرى فى عام ١٨٦٨ ، وكانت كارثة مفجعة ذهب ضحيتها نحو ٣٠٠ر٠٠٠ شخص • ويقول المسلمون الجزائريون ان عدد الضحايا بلغ اذ ذاك نصف مليون على الاقل

واتخذت الامبراطورية الفرنسية التدابير المحبذة لانتشار الاستعمار على أوسع نطاق ، فأنشأت فى عام ١٩٥٨ المجالس العامة ووسعت نطاق الاراضى التى يحق للمدنيين تملكها ، ثم عادت فى عام ١٨٦٤ فجعلت الافضلية للعسكريين ومنذ عام ١٨٥٢ ألغى الامبراطور نابليون الثالث حق تمثيل المستعمرين المدنيين بالجزائر فى المجلس التشريعى بباريس •

وفى سنة ١٨٦٥ بدأت الامبراطورية تطبق بعض مبادىء الانضمام على الاهالى المسلمين وصدر مرسوم فى ١٤ يوليو عام ١٨٦٥ يعتبر المواطن المسلم الجزائرى فرنسيا مع بقائه تابعا لحكم القانون الاسلامى ، ولكنه يستطيع بناء على طلبه التمتع بحقوق المواطن الفرنسى ، وفى هذه الحالة تسرى عليه الاحكام المدنية والسياسية الخاصة بالفرنسيين •

وهذا النص بدلا من ان يرفع من شأن المسلمين حط من قدرهم ، فقد أعلن أنهم فرنسيون ولكنهم غير متمتعين بحقوق الفرنسيين السياسية • ولكى يصبحوا مواطنين فرنسيين يجب أن يتخلوا عن قانون الاحوال الشخصية الخاص بهم (وهو القانون الاسلامى) وهذا هو السبب فى رفض المسلمين لهذا القانون •

ومما يجدر ذكره انه في عام ١٩٣٦ لم يكن قد تجنس بالجنسية الفرنسية سوى ٧٨١٧ شخصا من بين ستة ملايين جزائرى ٠

ازدياد المهاجرين الاوروبيين

زاد عدد المهاجرين الاوروبيين الى ١٦٠٠٠٠ر في عام ١٨٦٥ ثم ارتفع الى ٢٢٠٠٠٠ر فى عام ١٨٦٦ بعد أن نفى نابليون الثالث الى الجزائر جميع رجال المقاومة الذين اشتركوا فى حركة انقلاب ٢ ديسمبر ، وتعرض هؤلاء المنفيون للامراض والجوع فهلك منهم عدد كبير ٠ وثار أصحاب الاراضى من الاوروبيين فى الجزائر على أثر عزيمة فرنسا عام ١٨٧٠ وتولت هيئة « الكومون » الحكم فى فرنسا والجزائر ووهران وقسطنطينة وطردت اللجان الجديدة ضبـــاط الامبراطورية واعلنت الجمهورية ٠ ولم يكن هناك اى اتصال بين رجال الحكم فى باريس ورجال الحكم فى الجزائر ولا أية وحدة فى البرنامج السياسى والاجتماعى ٠

وعين الاميرال جيدون حاكما على الجزائر ، فعمل على ارضـــاء المعمرين الفرنسيين ، وصدر مرسوم بربط الجزائر بوزارة الداخلية الفرنسية وبتعيين ثلاثة حكام على ولايات الجزائر الثلاث ، وباعادة تمثيل الجزائر فى الجمعية الوطنية ، وصدر مرسوم آخر بمنـــح الجنسية الجزائرية الى جميع اليهود المقيمين بالجزائر ، واعتبارهم من المواطنين وكان عددهم نحو ٣٥٠٠٠ر شخص يقيمون منذ زمن طويل بالجزائر ، وبعضهم من سلالة المهاجرين من فلسطين وبعضهم من البربر الذين اعتنقوا اليهودية منذ عدة قرون ، والبعض لاجئـون أسبانيون طردهم الاسبان بعد هزيمة العرب واضطهاد المسلمين فى عهد الملك فيليب الثانى الاسبانى وغيره من ملوك أسبانيا الكاثوليك

وظلت الادارة تسير متبعة نظام الانضمام لفرنسا خلال الفترة من ١٨٧٠ الى ١٨٨٠ على أساس التفرقة العنصرية ٠ وكانت المجـالس

العامة تعتمد فى مواردها على الضرائب المفروضة على الاهالى العرب فرضا تعسفيا لا يزال قائما الى يومنا هذا ، وسادت سياسة جول فيرى من عام ١٨٨٠ الى عام ١٩٠٠ وأصبح أوجين اتيين نائب وهران رئيسا لحزب استعمارى بالبرلمان الفرنسى • وامتد الاستعمار الفرنسى الى أوسع نطاق معتمدا على المصارف والقروض ، وانتشرت حقول الكروم بالجزائر انتشارا واسع المدى حتى أصبحت المورد الرئيسى للمستعمرين ، كما أصبحت مدينتا الجزائر ووهران من أهم المراكز التجارية •

وهذا التطور يوضح التغيير الذى طرأ على السياسة التى طبقتها الحكومة الفرنسية فى الجزائر ، وعمد أصحاب الاملاك والاراضى من الاوروبيين والفرنسيين الى تدعيم سلطانهم بانشاء مؤسسات وهيئات خاصة كان لها أثرها فى فشل حركة الانضمام الى فرنسا •

وأدت هذه الاصلاحات الى حكم ذاتى للجزائر كان لمصلحة أصحاب الاراضى من الاوروبيين فقط ، ويعتبر هذا النظام الذى ساد الجزائر منذ عام ١٨٩٦ الى عام ١٩٠٢ اعترافا بأن الجزائر لم تكن ولن تكون قطعة من فرنسا • وبموجب المراسيم التى صدرت فى هذه الفترة ركز الحاكم تحت سلطانه « حكم الجزائر واداراتها العليا » ومن أهم ما نظمته الحكومة فى ذلك الحين هيئة المندوبين الماليين والميزانية الخاصة للجزائر ، وقد كانت هيئة المندوبين الماليين تتألف من ٧٢ عضوا منهم ٤٨ من الاوروبيين ، و ٢٤ من المسلمين ، وكان الاوروبيون من كبار أصحاب الاراضى يسيطرون على هذه الهيئة ويفرضون ارادتهم متبجحين بشعور التفرقة العنصرية ، ويعارضون بعنف كل اقتراح يؤدى الى تخفيف الضغط والعسف عن الاهالى المسلمين ، وتمكنت هذه الهيئة من الغاء بعض الاصلاحات السياسية كمشروع بلوم ـ فيوليت الذى ينص على منح حق المواطن الى ٢٠٫٠٠٠ من

المسلمين المتقدمين دون الزامهم بالتخلي عن قانون أحوالهم الشخصية المستمد من الشريعة الاسلامية ·

وكانت كراهية الفرنسيين للعرب لا تقف عند حد ، ولما اقترح الحاكم فيوليت أن تمنح المرأة الجزائرية عند وضعها ٣٠ فرنكا ضج الاعضاء الفرنسيون وقالوا ان هذا الاقتراح هو من وضع الفرنسيين في فرنسا وليس من وضع الفرنسيين في الجزائر ·

وظلت الجزائر طيلة ٥٠ سنة خاضعة ، لنظام المراسيم ، فكانت تخضع مباشرة للسلطة التنفيذية الى يوم ٢٠ سبتمبر عام ١٩٤٧ وهو يوم نشر القانون الجديد ·

وكانت الجزائر مقسمة الى منطقتين : المنطقة الشمالية وفيهما المقاطعات والجمعيات المنتخبة والاراضي الجنوبية الواقعة تحت السلطة العسكرية وكان للمسلمين الجزائريين الحق في ربع مقاعد المجالس العامة ·

وكان المسلمون الجزائريون خاضعين لقانون خاص وضع عام ١٨٨١ وعدل في عام ١٩١٤ والغي عام ١٩٤٤ ، وكان هذا القانون يخول لرجال الادارة سلطات قضائية تعسفية ، فكانوا ينفون المشبوهين الى المناطق الجنوبية ويستولون على أملاكهم وأموالهم دون أن يكون لهم حق الاعتراض · وبموجب هذا القانون كان يطبق على القبائل مبدأ المسئولية الاجرامية الجماعية ، فاذا ارتكب أحد أفراد القبيلة جريمة اعتبر جميع أفراد القبيلة مسئولين جنائيا وعوقبوا العقاب المشترك ·

وكان المسلمون خاضعون لمحاكم جنايات خاصة كانت أحكامها دائما أقسى من أحكام محاكم الجنايات العادية وازدادت هذه المحاكم تعسفا وقسوة في عهد حكومة فيشي حين عمدت الشركات الاستعمارية الى تموين الجيش الالماني الذي كان بقيادة روميل ومدت هذا الجيش

بما يلزمه من الحديد والفوسفات وغيرها من المواد التموينية وحرمت البلاد وأهليها من مواد كثيرة حتى باتت في حالة ضنك وعوز ٠ واذا عدنا الى الفترة التي بين عام ١٨٨٠ وعام ١٩٠٠ نجد أن حركة الهجرة الى الجزائر ازدادت زيادة كبرى ، وشجع على هذه الزيادة منح المهاجرين الجدد أراضي انتزعت ملكيتها من القبائل ٠

وفي عام ١٨٨٩ رأت الحكومة أن حركة هجرة الفرنسيين الى الجزائر ضعيفة ، فأصدرت قانونا بمنح الجنسية الفرنسية الى جميع الاجانب الذين بلغ عمرهم ٢٠ سنة مع حق الاحتفاظ بجنسيتهم الاصلية ، وكانت هذه وسيلة ابتدعت لزيادة عدد الفرنسيين الجزائريين ٠

وبعد عام ١٩١٠ هبطت حركة الهجرة وصار يعتمد على المواليد في زيادة عدد الفرنسيين والاجانب المقيمين في الجزائر ٠

وفي البيان التالي ايضاح بيان هذه الزيادة :

عام	فرنسيين	أجانب	المجموع
١٨٧٦	١٨٩ر٠٠٠	١٥٥ر٠٠٠	٣٤٤ر٠٠٠
١٨٨١	٢٣٠ر٠٠٠	١٨٢ر٠٠٠	٤١٢ر٠٠٠
١٩١١	٥٦٣ر٠٠٠	١٨٩ر٠٠٠	٧٥٢ر٠٠٠
١٩٣٦	٨١٩ر٠٠٠	١٢٧ر٠٠٠	٩٤٦ر٠٠٠
١٩٥٤	٩١٣ر٠٠٠	٧١ر٠٠٠	٩٨٤ر٠٠٠

وكان أكثر الاوروبيين والفرنسيين يفضلون الاقامة في المدن ،وفي خلال الفترة التي بين الحربين العالميتين لم يكن يعيش من الزراعة سوى ١٢٥ر٠٠٠ شخص من الفرنسيين والاجانب وهو يعادل ١٢٪ من مجموع الاهالي الاوروبيين ٠

ويبدو بوضوح أن نصف هؤلاء الاوروبيين يكاد يكون من

الفرنسيين ، وهم على أية حال قد مضى عليهم زمن طويل بالجزائر يجعلهم يعتبرونها وطنا لهم ٠

وفي عام ١٩٤٨ كان عدد الاوروبيين ٩٣١ر٨٠٠ شـخص منهم ٧٤٤ر٠٠٠ ولدوا في الجزائر ٠ وقد أصبح هؤلاء الاوروبيون عـلى اختلاف أصولهم يكونون عناصر ثانية تؤلف في مجموعها جزءا هاما من الشعب الجزائرى كما تؤلف فيما بينها شعبا جديدا له مجتمعه الخاص وأخلاقه ولهجاته ، وهو يختلف في الـواقع عن الشعب الفرنسي الاصيل اختلافا تاما ، ولكنه تأقلم في البلاد وأصبـح كأبنائها الاصليين ٠

سرقة الاراضى

قبل عام ١٨٣٠ كان نظام امتلاك الاراضي في الجزائر يسير وفقا للاصول والشرع الاسلامي ، وكانت هناك أربعة أنواع من الاراضي : الاوقاف ٠ وأراضي الحكومة ، وراضي القبائل ، والاملاك الفردية ، وكانت أمـلاك وأراضي الاوقاف ذات طابع عام أو خـاص ، وكانت الاوقاف العامة تتألف من هبات منحها الافراد الى شخصية معنوية دينية لصالح مسجد أو مدينة مقدسة ، وكان ريعها ينفق على الاعمال الخيرية والدينية أو في منافع عامة ٠

وكان من الطبيعي عدم امكان التصرف في هذه الاوقاف وعـدم بيعها الى الافراد ، والاوقاف تؤدي دورا هاما في الهيئة الاجتماعيـة لدى المسلمين ، لانها كانت جزءا من الموارد الهامة المخصص ايرادها لتقديم المساعدات للمعوزين ، ولذلك كانت للاستيلاء عليها نتـائج خطيرة من الناحية الاجتماعية ٠

أما أملاك الحكومة فكان جزء من ايرادها يعود لخزانة الدولة تدفع منه أجور الموظفين والجنود المرتزقة

أما أراضي القبائل فكانت أملاكا مشتركة جماعية ولكل قبيلة مساحة من الاراضى تكفى لاحتياجاتها • وكانت هذه الاراضى لا يتصرف فيها ، لان كل فرد فى القبيلة كانت تخصص له قطعة من الارض يستفيد من ريعها دون أن يكون مالكا لها • وكانت أراضي القبائل مخصصة للزراعة أو لرعاية المواشي ، ولتسهيل الاستيلاء على هذه الاراضى عمد بعض المشرعين الممالئين للمستعمرين الى اعتبارها من أملاك الدولة وارتكبوا بذلك خطأ جسيما ، لان هذه الاراضى ملك للقبيلة بطريق الميراث •

أما الاراضى التى يملكها الافراد فكانت تمثل الملكية الفردية ، مع أنها ذات طابع جماعى ، لانها كانت فى أغلب الاحيان ملكا لاسرة كبيرة وانتقلت لهذه الاسرة بطريق الميراث

ولم يكن فى الجزائر وثائق وسندات للتمليك على غرار الطريقة المعروفة فى أوروبا ، فضلا عن أن أكثر المستندات والحجج التى كانت موجودة فى سجلات الدولة نهبت ودمرت أثناء المعارك ولم يبق منها الا القليل •

ومن هنا نشبت المتاعب خصوصا أن الطامعين فى امتلاك الاراضى من الاوربيين كان يعميهم الجشع • ولم يكن لهم وازع من ضميرهم فضلا عن جهلهم بالاصول والتقاليد ، فقاموا بأعمال تخالف كل عرف ونتج عن ذلك اخلال بالتوازن الاجتماعى ، ونقص فى الانتاج أدى الى كارثة أصابت الشعب الجزائرى ، لان ما قام به المستعمر لا يتفق والغاء الاقطاع بالوضع الذى كان عليه فى أوروبا • كان الاستعمار يسير على خطة مرسومة فيبدأ فى سرقة الارض ويضع اليد عليها ثم باسم القانون يضفى على هذه السرقة ستارا مظلما يضمن حقوق المالك الجديد • وكان هم المشرعين من ملكيين وجمهوريين هو العمل على ضم الاملاك العامة والاراضى الجماعية الى أملاك الدولة الفرنسية ليوزعوها بعد ذلك على المعمرين أو يبيعوها للافراد بموجب

صكوك وعقود تجعل لهذا البيع الصفة القانونية .

وكانت الادارة الفرنسية تستولى على كل أرض خصبة فيها مياه للرى ، وقد أصدر بوجو فى ١٤ مايو عام ١٨٣٠ تصريحه المشهور الذى قال فيه :

« حيث وجدت مياه غزيرة وأراض خصبة يجب أن يقيم المعمرون دون الاهتمام بالسؤال عن أصحاب هذه الارض »

وهكذا تم الاستيلاء على أراضى الحكومة وضم أراضى الأوقاف الى أملاك الدولة فى عام ١٨٤٣ وصدر فى السنة التالية أمر بالغاء مبدأ عدم التصرف فى الوقف .

وفى عام ١٨٥١ صدر قانون كالقوانين السابقة وجرى تطبيقه على أراضى القبائل ، ووصف المشرع جودين هذا القانون بأنه احدى نظريات السرقة ، لانه يقول لاهالى البلاد : بما انكم لستم سوى مستفيدين بريع الارض فسوف تتنازلون للدولة عن حقوقكم فى الارض التى لا حاجة لكم بها ، وسنعترف لكم الدولة فى مقابل ذلك بملكيتكم التامة للاراضى التى ستترك لكم ، واستولت الدولة على أحسن الاراضى وقسمت الباقى الى قطع صغيرة منحت للاسر بنسبة ٨ أو ١٠ هكتارات لكل أسرة .

وفى الوقت نفسه صدرت الاوامر بأن توضع تحت الحراسة العسكرية جميع أراضى من يشهرون السلاح فى وجه فرنسا ومن ينضمون الى أعدائها ، وبهذه الوسيلة استولى الاستعمار على مئات الالوف من الهكتارات ونزع ملكية أراضى عدد كبير من القبائل وحرمها من مواردها .

ولا يفوتنا أن القروض التى كان يقرضها المرابون بفوائد فاحشة كانت تنتهى باستيلاء المرابين على هذه الاراضى ، وكانت جميع هذه

العوامل والوسائل من الاسباب التي جعلت الاراضي تنتقل ملكيتها الى المستعمرين تدريجا ٠

ففي عام ١٨٥٠ كان المستعمرون الاجانب يمتلكون ١١٥ر٠٠٠ هكتار ، وارتفع هذا الرقم الى ٣٦٥ر٠٠٠ هكتار في عام ١٨٦٠والى ٧٦٥ر٠٠٠ هكتار في عام ١٨٧٠ في عهد الامبراطورية الرابعة ٠٠ وتضاعف هذا الرقم بسرعة في عهد الجمهورية الثالثة حتى وصل الى ١ر٦٨٢ر٠٠٠ هكتار في عام ١٩٠٠ ثم الى ١ر٨٤٧ر٠٠٠ هكتار في عام ١٩١٠ والى٢ر٣٤٤ر٠٠٠ هكتارفيعام ١٩٢٩والى ٢ر٧٢٠ر٠٠٠ هكتار في عام ١٩٤٠

وقد امتصت شركات الاستعمار الكبرى أملاك صغار المعمرين ، فبينما كان لا يعطى للمعمر الاوروبي سوى ٤ أو ١٢ هكتارا في عهد بوجو أصبح يمنح مجانا ٢٠ هكتارا في عهد الجمهورية الثانية ثم زادت الى ٤٠ هكتارا ثم الى ١٠٠ هكتار بعد عام ١٩٠٤ ، وفي نفس الوقت كانت الدولة تعطى مساحات واسعة من الاراضي للشركات المالية الكبرى ، فقد تمكنت شركة الجنيفواز التي أسست عام ١٨٥٣ من الحصول على ٢٠ر٠٠٠ هكتار في ضواحي ستيف معفاة من كل أنواع الضرائب ٠ وفي عامي ١٨٦٢ و ١٨٦٣ تم منح ١٦٠ر٠٠٠ هكتار بصورة نهائية الى ٣٠ شخصا ، وفي عام ١٨٦٥ حصلت الشركة العمومية الجزائرية على ١٠٠ر٠٠٠ هكتار منها ٨٠ر٠٠٠ هكتار في مقاطعة قسطنطينة بايجار قدره فرنك واحد لكل هكتار ، ثم أفلست هذه الشركة وحولتها الحكومة الى الشركة الجزائرية وتنازلت لها عن ٧٠ر٠٠٠ هكتار ٠

وابتداء من عام ١٨٧٠ نشطت حركةمشترى قطعالاراضي الصغيرة وكانت الشركات الكبرى وكبار أصحاب الاراضي الاوروبيين يشترون

قرى بأسرها حتى أن قرية فى ولاية قسطنطينة كان بها ٢١٨ من صغار الملاك فى عام ١٨٨٠ لم يبق منهم سوى ٤٨ مالكا فى عــام ١٩٣٠

وقد أصبحت ثلاثة أرباع أراضى الكروم فى الوقت الحاضر ملكــا للشركات الزراعية ولكبار المستعمرين الذين يشرفون فى الوقت نفسه على بقية الزراعات وأكثر المنتجات الزراعية ، والجــزائريون الذين يعيشون الآن من الزراعة يمثلون ٧٠ ٪ من مجموع الاهالى ، ولكن ٨٠٪ من المسلمين قرويون ونسبة المسلمين الذين يعيشون من الزراعة ٩٨٪

وتقسم الاملاك فى أراضى الجزائر الشمالية حسب احصاء عــــام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ كما يلى :

أملاك المسلمين	٧ر١٣٣ر٠٠٠ هكتار
أملاك الاوروبيين	٢ر٧٠٣ر٠٠٠ هكتار
أملاك الدولة	١١ر٠٠٠ر٠٠٠هكتار

والاراضى التى يمكن الانتفاع منها تبلغ مساحتها ٦ر٨٠٠ر٠٠٠ هكتار والباقى أكثره بور وتنبت فيه الحلفا ٠

هذا مع ملاحظة أن الاوروبيين يملكون أجود الاراضى وأخصبهــا ، ويمكن تقدير ثمن الهكتار الذى يملكه الاوروبى بثلاثة أضعاف قيمة الهكتار الذى يملكه العربى الجزائرى ، وتم أيضا تطبيق التفــرقة العنصرية فى توزيع مياه الرى ، وأدى ذلك الى أن أصبح المسلمون لا يملكون سوى ٧٪ من الاراضى الزراعية فى ساحل الجزائر ، و١٧٪ فى منبجا ، ونحو ١٥٪ فى وهــــران و ٢٣٪ فى مستغانم و ٢٤/ فى سيدىأبى العباس ، وكذلك استولى الاستعمار الاوروبى على غابات الفلين ٠

واليك بيان بتوزيع الملكية بين الاهالى المسلمين :

عدد الملكيات	مساحتها	اجمالى المساحة
٤٠٠ر٠٠٠	أقل من ١٠ هكتار	١ر٨٠٠ر٠٠٠ هكتار
١٢٠ر٠٠٠	بين ١٠ و ٥٠ هكتارا	٣ر٠٠٠ر٠٠٠ هكتار
١٧ر٠٠٠	بين ٥٠ و ١٠٠ هكتار	١ر٢٠٠ر٠٠٠ هكتار
٥ر٠٠٠	بين ١٠٠ و ٥٠٠ هكتار	١ر١٠٠ر٠٠٠ هكتار
٦٠٠	فوق ٥٠٠ هكتار	٥٠٠ر٠٠٠ هكتار
٥٩٢ر٠٠٠ المجموع		المجموع ٧ر٦٠٠ر٠٠٠ هكتار

وفى الجزائر أكثر من نصف مليون اسرة لا تمتلك شيئا من الارض والعقار وتكسب عيشها من زراعة الارض أو مشاركة أصحابها فى زراعتها ، وعدد هذه الاسر يزيد عن ثلاثة ملايين شخص .

ويستدل من الاحصاء الذى تم عام ١٩٥٤ على أن ٨٧٥ر٠٠٠ رجل و ٩٦٠ر٠٠٠ سيدة من الفلاحين لا يقومون بأى عمل اطلاقا ، وهذا هو السبب الذى جعل ٤٠٠ر٠٠٠ جزائرى يهاجرون الى فرنسا طلبا للعمل .

الفصل السادس

عواقب النظام الاستعماري

المعاملة الاقتصادية :

لقد أوضحت الوثائق والمستندات ان الجزائر لم تكن في يوم من الايام ولاية فرنسية، ولكنها كانت بلدا «مستعمرا» مرتبطا بفرنسا خلافا لما يدعيه الفرنسيون ولكى ندلل على ذلك بصفة قاطعة يكفى أن نقوم بتحليل المظاهر الرئيسية للاقتصاد الجزائرى :

ليست الجزائر سوى مستعمرة ولكن الذين كانوا يلاحظون أنها كانت تخضع لشروط خاصة قليلون وهذه الظروف تعتبر مشددة استعماريا .

والواقع ان الجزائر مستعمرة بالمعنى العادى تخضع لبـــلد آخر يسبقها اقتصاديا يسمى البلد الاصلى أو هى بمعنى أدق خاضـعة لرأس مال البلد المستعمر ، وهى فى الوقت نفسه تستـــعمر طبقا لشروط خاصة بالاستعمار ، تخضع لسيطرة سادة من الاوروبيين يقيمون فيها ، ولهذا كان الشعب الجزائرى ينوء تحت وطأة نيرين يثقلان كاهله وهما : رأس المال الفرنسى ؛ وهيئة الاستعمار المحلى، وهذا ما يفسر خطورة النتائج الاستثنائية من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للنظام الاستعمارى المطبق فى الجزائر .

فالرأس المال الفرنسى والاستعمار الجزائرى متحالفان ومتفقـان فى كثير من النواحى ، وتوجد بينهما بعض اختــلافات فى نواح محدودة ، وهذه الاختلافات الطفيفة لم تحل دون سير النظـــام الاستعمارى قدما فى سبيل الاستثمار والظلم المطرد الزيادة . وقد ظهر من آخر تحليل للموقف أن رأس المال الفـــرنسى هو أكبر مسيطر وأعظم مستفيد من الاستثمار الاستعمارى للجزائر . ويملك رأس المـال الفرنسى وسائل مباشرة وغير مباشرة ، ووسائله غير

المباشرة تعتبر قاطعة حاسمة ، لانها ترتكز على الاعتمادات المصرفية والسيطرة على الاسواق التى يتم فيها تصريف منتجات الجزائر ، وعلى جميع وسائل النقل ، وهكذا يتصرف أسياد الجزائر كما يحلو لهم بمصير الاقتصاد الجزائرى ويوجهونه الوجهة التى تتفق مع مصالحهم .

وتعتبر زراعة الكروم هى الرأسمال الرئيسى للانتاج الزراعى الذى ترتكز عليه موارد الثروة فى الجزائر ، وهذا ما مكن الاستعماريين من القيام بدور حاسم لدى المنظمات الاقتصادية والسياسية المحلية جعلهم متعادلين فى هذا المجال مع أصحاب رءوس الاموال الفرنسيين المقيمين فى فرنسا ، ومن هنا يمكن ادراك الاختلاف الظاهر بين نزعتى السياسة الاقتصادية المفروضة على الجزائر ، وهما نزعة الانضمام التى يغذيها الرأس المال الفرنسى وتهدف الى تدعيم ارتباط الجزائر بفرنسا ، والنزعة «الاستغلالية» لكبار أصحاب الاملاك فى الجزائر .

ومما يخفف شدة هذا الاختلاف من الوجهة العملية أن النزعة « الاستغلالية » تتناول فى جوهرها الاقتصاد الداخلى ، والنظام الضرائبى والهيئات الادارية والسياسية فى الجزائر بما يتفق مع مصلحة كبار أصحاب الاملاك الاوربيين ، بينما نزعة الانضمام الى فرنسا تنحصر فى المبادلات الخارجية وفى التجارة بين فرنسا والجزائر .

والرأس المال الفرنسى - وهو الذى تملكه المؤسسات المقيمة فى فرنسا - يسيطر مباشرة على الاملاك العقارية التى يملكها ، كما يسيطر على جزء من الانتاج الزراعى وعلى مجموع انتاج المناجم وانتاج الطاقة وأهمها البترول ، وعلى مؤسسات الاشغال العامة وكثير من صناعات التحويل والدوائر التجارية ووسائل النقل البرية والبحرية والجوية ، كما أن المصارف المعروفة باسم المصارف

الجزائرية ليست فى الواقع سوى فروع لمصارف فرنسا الكبرى ، وهكذا نرى ان بنك الاتحاد الباريسى – ميرابو – يسيطر بواسطة الشركة الجديدة الجزائرية للتسليف ، وأعمال البنوك – على الاقتصاد الجزائرى بصـــورة واسعة جــدا ، ومن ذلك أن الشركة الجزائرية القديمة المرتبطة بهذا البنك وتعتبر فرعا بســـيطا منه تستثمر وحدها ٦٦٫٠٠٠ هكتار من الاراضى ، كما يسيطر هذا البنك على مرافق مختلفة بواسطة رجاله وفروعه ومساهماته المتسترة المعقدة فهو المستولى على شركة هامندا للفلين وغيرها ، وهى تستثمر مساحة ٥٠٫٠٠٠ هكتار من غابات أشجار الفلين ، وتمتد سيطرة هــذا المصرف الى مناجم الحديد وشركة النقل والوساطة التى تقوم بدور هام فى شئون النقل البحرى والتجارة الخارجية ، وتسيطر جماعة روتشيلد بصورة مباشرة على مناجم الرصاص والزنك ونقل الخمور وشركات النقل البرى وجزء من تجارة البترول ٠

وهكذا يسيطر بنك باريس وهولندا المرتبط ببنك الهند الصينية على مساحات واسعة من الاراضى الزراعية والكروم ٠

وتستثمر شركة الجنفواز أراضى مساحتهــا ١٥٫٠٠٠ هــكتار فى نواحى ستيف ٠ وكانت هذه الشركة تمتاز بطابعها الاقطـــاعى وتتقاضى فوائد باهظة نسبتها ١٠٠٪ لقاء تسليفها على قيمة التقاوى للمزارعين الجزائريين العاملين فى أراضيها،وقد اتهمت هذه الشركة بأنها تعمل على تسخير العمال واستعبادهم ، وهذا ما ينطبق تقريبا على جميع الشركات الكبرى وكبار أصحاب الاملاك من الاوروبيين ، وهناك غير الذين ذكروا جماعات من الماليين يكملون تمثيل راس المال الفرنسى بالجزائر فى الشركات الصناعية المختلفة التى كانت سببا فى نشوء الصراع بين الطبقة العاملة وبين مســـتثمريها من الماليين الذين أصبحوا يعتبرون فى الواقع سادة الجزائر ٠

ان رأس المال الزراعى منحصر فى أيد محـــدودة من الاسر التى

تؤلف جماعة أطلق عليها اسم « الاسياد المائة المستعمرون » فان هؤلاء الاسياد يملكون عدة آلاف من الهكتارات تشمل مزارع شاسعة من الكروم والموالح والمزروعات الاخرى، وقد تخصص أحد الراسماليين ويدعى « جورج بلاشيت » فى زراعة الحلفا، فهو يستثمر ٦٨٩٫٠٠٠ هكتار من الاراضى التى تنازلت له عنها الحكومة لقاء ١٥ سنتيما يدفعها عن كل طن من الحلفا وما زاد من المحصول عن ١٠٠ الف طن يدفع عنه لخزانة الحكومة ٢٥ سنتيما ، مع أن طن الحلفا كان يساوى ١٧٫٥٠٠ فرنك في عام ١٩٥٦ ، ولا ندهش بعد ذلك اذا لقب هذا الرجل « بملك الحلفا » .

ولما كان الانتاج الزراعي يتأثر بهطول الامطار وبتقلبات أسعار الاسواق العالمية التي تجعل تمويل المشروعات الزراعية نوعا من المجازفة عمد كبار أصحاب الاملاك الى توظيف أموالهم فى المناجم والتجارة ووسائل النقل والاعمال المالية والصرف ، ومن هؤلاء جماعة باستوس أصحاب المليارات المالكين لامتياز صناعة التبغ وتجارتها ، وجماعة بورجو المساهمة فى مرافق مالية وصناعية عديدة ، ويضيق بنا المقام اذا أردنا ذكر أسماء جميع أصحاب الاملاك ورءوس الاموال من المستعمرين المقيمين بالجزائر وما يملكونه من شركات ، وما يحتلونه من مراكز كبيرة فى الدوائر الحكومية تساعدهم على استثمار اموالهم .

ويملك هؤلاء المستعمرون سلاح الصحافة الفعال ، فهم أصحاب أكبر الجرائد فى الجزائر ، ولهذا عمدت هذه الصحف منذ بداية الثورة الى توسيع شقة الخلاف وبث بذور التفرقة العنصرية بأقبح صورها ، ويكفى لاظهار فداحة السلب الذى يسير عليه هؤلاء المستعمرون أن نوضح بيان المبالغ الضخمة التى ربحتها شركاتهم فى سنتى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ :

الشركات	الارباح بملايين الفرنكات سنة ١٩٥٣	سنة ١٩٥٤
أونيزا	٢٤٠٤	٢٨٤٤
مقته الحديد	٩١٢	٧٥٧
فوسفات قسطنطينه	١٧٨	٢٢٢
باستوس	٣٨٥	٣٩٨
شركة التسليف الجزائرية	٣٤٤	٣٥٥
شركة فنين هامندا	٣٣٧	٣٩٧

وهذه المبالغ لا توضح الارباح الحقيقية ، لانهـا أقل من الواقع ، والارباح المعترف بها من ٢٢ شركة ارتفعت من ٤٥٨ مليون فرنك فى عام ١٩٤٧ الى ٢٫٠٠٨ ملايين فى عام ١٩٥٠ و ٥٫٥٩٨ فى عام١٩٥٢، و ٧١٥٥ مليونا فى عام ١٩٥٤ ، وهؤلاء هم سادة الجزائر الحقيقيون الذين تستوحى منهم السياسة المتبعة منذ الحـوادث الاخيرة التى بدأت فى عام ١٩٥٤

الانتاج :

ان الانتاج الجزائرى غير متوازن ، لأن العيب يكمن فى طريقـة توجيهه ، فالانتاج الزراعى يفوق كل انتاج ، وهو بنسـبة ٣٥ أو ٤٠ ٪ من ايراد البلاد بينما تعادل نسبة ايراد الصناعات بما فيها المناجم والمبانى والاشغال العامة نحو ٢٥ أو ٢٧ ٪ فى الوقت الذى تبلغ فيه ايرادات هذه الصناعات فى فرنسا ٥٠ ٪ من الايراد العام .

ومما يجدر ذكره أن الانتاج الزراعى غير متوازن الى حد كبـير الخطورة ، فالمستعمرون الاوروبيون يحصلون على ثلثى قمة هـذا الانتاج ، بينما لا يحصل القرويون الجزائريون الا على الثلث فقط ، وهم يؤلفون ٧٠ ٪ من أهالى الجزائر ، وكانت قيمة الانتاج عام١٩٥٥،

نحو ١٤٥ مليار فرنك خص منها المستعمرين ١٠٠ مليار، والجزائريين ٤٥ مليارا ، وهناك أيضا ٦٠٠٠ من كبار أصحاب الاراضى الاوربيين من ٢٢٫٠٠٠ مالك كان نصيبهم أكثر من نصف الايراد ، أى نحو ٨٠ مليارا من ١٤٥ مليارا قيمة مجموع الانتاج ·

وينتج الاهالى الجزائريون الحبوب التى هى عادة الغذاء الاساسى ، وينتجون أيضا الزيت والتين ويملكون القسم الاكبر من قطعان الاغنام ، وأكثر هذا الانتاج يستهلك محليا ، بينما أصحاب الاراضى الاوربيون ينتجون قسما من الحبوب ويحتفظون بجميع المنتجات الزراعية الاخرى تقريبا لتصديرها للخارج كالخمور والموالح والفلين والحلفا وغيرها ·

واذا قارنا بين انتاج الحبوب وانتاج الخمور نرى أن الكروم زادت مساحتها من ١٥٢٫٠٠٠ هكتار فى عام ١٩١٠ الى ٤٠٠٫٠٠٠ هكتار فى عام ١٩٣٥ ، بينما لم تتغير أبدا مساحة الاراضى المنزرعة حبوبا، فقد كانت هذه المساحة ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ هكتار فى الفترة التى بين أعوام ١٨٨٥ و ١٨٩٤ وظلت على حالها الى الاعوام من١٩٤٥ـ١٩٥٤، وهذا أمر خطير بالنسبة لازدياد عدد الاهالى الجزائريين ·

ومن الخطورة أيضا نقص المحصول ، لان الاراضى التى كانت تزرع حبوبا تغيرت ، واستولى المستعمرون على المناطق الخصبة وزرعوا فيها الكروم ، واضطر القرويون الى الانتقال للجنوب وحرث الاراضى القاحلة ، وبهذه الطريقة حول المستعمرون ١٥٠٫٠٠٠ هكتار وزرعوها كروما بدل الحبوب ·

ويملك المستعمرون الاوروبيون ٩٥ ٪ من أراضى الكروم ، وأكثرها ملك لكبار الاقطاعيين ، فقد أنتج ١٣ ٪ منهم ثلاثة أرباع كميات الخمور من محصول عام ١٩٥٤ وبلغ ١٤٫٥٠٠٫٠٠٠ هكتو لتر من ١٩٫٣٠٠٫٠٠٠ هكتو لتر ، هو مجموع الانتاج ، وقد انخفض انتاج الحبوب عما كان عليه فى السنوات السابقة فبعد أن كان يقدر

بعشرين مليون قنطار بين أعوام ١٩٠٥ و ١٩١٤ أصبح ١٦ مليون قنطار فى أعوام ١٩٤٥ و ١٩٥٤

وينعى الاوروبيون ان القروى المسلم لا يبذل جهدا حقيقيا فى زراعة الارض ، ولا يستعمل الاصول الفنية الحديثة ، وهذا مايجعل انتاج الارض يهبط ، بينما الواقع يدل على أن أسباب هبوط الانتاج هى أستيلاء الاوروبيين على الاراضى الخصبة ، واجبار أبناء البلاد على الرحيل الى الجنوب القاحل ، والى زرع الصحارى الجافة المجدبة مع منع الوسائل الفنية والمالية عنه .

والنظام الاستعمارى هو المسئول الاول عن هذا النقص ، لان سياسة التسليف الزراعى تطبق بطريقة لا يستفيد منها الاهالى الجزائريون الا فى أضيق الحدود،ففى عام ١٩٥٣ كان اعتماد السلف الزراعية ٤٥٫٨ مليار فرنك لآجال قريبة لم يحصل منها القرويون الجزائريون الا على ٥٫٥ مليار بواسطة بنك التسليف الزراعى ، كما حرموا من الحصول على أية سلفة بعيدة الاجل ، وهذا هو الحال أيضا فى تربية الاغنام ، فقد قذف المستعمرون برعاة المواشى الى الجنوب ، وحرموهم من مراعى الشمال الخصبة فى مناطق التل وغيرها ، واستولوا على منابع المياه . وبعد أن كان الرعاة يتنقلون بقطعانهم بين الشمال والجنوب وفقا لمقتضيات الفصول اضطروا الى الانزواء فى المناطق الجنوبية والاكتفاء بمجالات ضيقة ، وظهرت نتيجة ذلك فى هبوط عدد الاغنام التى كانت نحو ٨٫٢٠٠٫٠٠٠ رأس فى الفترة بين ١٨٧١ و ١٨٨٠ فأصبحت ٤٫٣٥٠٫٠٠٠ رأس فى الفترة بين أعوام ١٩٤٦ و ١٩٥٣

ويؤخذ مما تقدم أن الاهالى الجزائريين زاد عددهم أكثر من الضعف خلال ٥٠ سنة ، أى زاد من أربعة ملايين فى عام ١٩٠١ الى ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ فى عام ١٩٥٤ ، بينما هبط انتاج الحبوب بنسبة ٢٠ ٪ وهبط كذلك عدد الاغنام الى نصف ما كان عليه قبل ٥٠ سنة

وكانت للتوجيه الاستعمارى نتائج سلبية بالنسبة لاهالى البلاد

فقد وضع العراقيل في سبيل العرب الرحل وتربيتهم للاغنام ، وأجبرهم على أن يتحضروا فاضطروا الى الاقامة فى مناطق غير صالحة للزراعة ولا لتربية المواشي ، فكان هذا التوجيه الاستعماري سيىء العواقب ، لأنه ضن بأسباب الاصلاح على الاراضى التى يقيم فيها العرب فضعف انتاجها وساءت معيشة أهاليها وأغراهم أصحاب الاموال من المستعمرين على التخلى عنها .

ويدعى المستعمرون أن جرم ازالة الغابات يقع على عاتق الاهالى الوطنيين مع أن العسكريين الفرنسيين كانوا أول العاملين على ازالتها لاسباب عسكرية يدعونها ، كما يشهد بذلك مؤرخوهم .
ثم انهم باجبارهم القبائل على الانتقال للمناطق غير المنتجة اضطروا هذه القبائل الى ازالة بعض الغابات وتحويلها الى أراض صالحة للزراعة والمراعى ، وكانت النتيجة كارثة ، فقد تم منذ ١٨٣٠ ازالة أكثر من مليون هكتار من الغابات ويزال ما يعادل ٤٠٠٠٠ هكتار كل عام من الغابات بسبب التفتت والتآكل .

واذا نظرنا الىالانتاج الصناعي كالمناجم والطاقة،والمباني والاشغال العامة فانه لا يمثل كله سوى ١٥ ٪ من الانتاج القومى ، بينما هو يعادل في فرنسا ٣٥ ٪ ، فقد عمد الاستعمار من ناحية أخرى الى القضاء على الصناعة المهنية فى المدن والقرى ، فكانت أرياف الجزائر تغزل وتنسج الملابس والخيام والسجاجيد ، ويتولى العمال فى المدن صنع الجلود والاوانى المعدنية والخزف وغيرها ، وعمل الاستعمار أيضا على استيراد الادوات المصنوعة فى الخارج من الاصناف الرديئة والرخيصة فقضت على المنتجات المحلية ، بل قضت على كل المهن تقريبا .

ومما يجدر ذكره أيضا أن مصنع النسيج فى وهران اقفل ابوابه عام ١٩٥٤ وألقى الى الشارع الفا وخمسمائة من العمال ارضاء لكبار أصحاب المصانع الفرنسيين ، ومنذ الحرب العالمية الاخيرة ازداد

الاقبال على استخراج المعادن الاستراتيجية ولكنها كلها صدرت للخارج فلم يستفد منها الا المستعمرون ، ولا يستهلك فى الجزائر سوى الفحم الحجرى المستخرج من مناجم كنادساكولومب بيشار ويبلغ انتاجه ٣٠٠٫٠٠٠ طن فى السنة تسد ثلث حاجة البلاد .

واليك بيان انتاج المعادن بألوف الاطنان :

المعدن	١٩٣٩	١٩٥٠	١٩٥٤
الحديد	٢٩٤٠	٢٥٧٣	٢٩٢٣
الرصاص	٦	٢٫٤	١٥
الزنك	١٠	١٦٫	٥٠
الفوسفات	٥٠٠	٦٨٥	٧٥٨

التجارة الخارجية

يخضع سوق الجزائر لنظام حماية جمركية تهدف الى منح احتكار حقيقى لاصحاب رءوس الاموال الفرنسيين والى كبار المستعمرين فى الجزائر . ونظام الحماية على هذا النمط لا يستفيد منه الا مصدرو السلع فى فرنسا للجزائر ، كما يستفيد منه مصدور الانتاج من الجزائر لفرنسا ، وكل هذا لمصلحة رأس المال الفرنسى .

يضاف الى ما تقدم أن احتكار النقل البحرى يجعل شركات الملاحة الفرنسية محتكرة تقريبا لمجموع حركة النقل البحرى بين فرنسا والجزائر ، ويجعل من الجزائر موئلا خصوصيا للاستعمار الفرنسى، وهذا النظام يعود بفوائد وفيرة على فرنسا ، لانها تسيطر بموجبه على ٧٥ ٪ من قيمة التجارة فى الجزائر .

واليك جدولا بالصادرات والواردات بين فرنسا والجزائر :

المتبادل	١٩٣٨	١٩٥٤	١٩٥٦
	٪	٪	٪
واردات من فرنسا	٧٥	٧٩	٧٨
صادرات الى فرنسا	٨٣	٧٣	٧٦

وفي عام ١٩٥٤ كانت الجزائر معتبرة أكبر عميـــل وثالث مورد لفرنسا بين جميع البلاد ، ولا تزال محتفظة بهذا المركز على الرغم من حرب التحرير الحالية . والتبادل التجارى بين فرنسا والجزائر ذو طابع استعماري صرف ، لأن الجزائر تستورد من فرنســـا المواد المصنوعة وتصدر اليها المواد الخام ومنتجات الزراعة .

والمشكلة الكبرى هي الناحية التي تستفيد من هذا التبـــادل ، فالدعاية الحكومية توهم الناس بأن هذا التبادل تعود فائدته على الشعب الفرنسي والجزائرى معا.والواقع هو عكس ذلك كماأوضحته اللجنة الفرعية الاقتصادية لفرنسا وما وراء البحـــــار التى ظهر من دراستها لنظام الحماية التجارية المفروض على الجزائر أن المستهلك الجزائرى دفع زيادة فى أسعار المواد التى استـــوردها عام ١٩٥٤ مقدارها ٣٢ مليارا ، وفي نفس هذه المدة دفع المستهلك الفرنسي فى فرنسا ٢٨ مليارا زيادة فى أسعار المواد المستوردة من الجـــزائر ، وبمعنى أوضح يكون جماعة الماليين المحتكرين للتصدير والاستيراد هم الوحيدون الذين يستفيدون من الجانبين على حساب المستهلك فى البلدين ، عدا المكاسب التى تجنيها شركات الملاحة الفرنسيةالمحتكرة لوسائل النقل . وارتباط الجزائر بفرنسا استعماريا أدى الى ظهور عجز مستمر فى ميزان الجزائر التجارى لعدم التكافؤ ، وقد بلغ هذا العجز ٧٨ مليارا فى عام ١٩٥٤ ،وقدصرح السناتور بلينك بقوله: اذا كانت الجزائر تعتبر أكبر عميل لفرنسا فانها ليست بأحسن عميل، فهى فى الواقع عميل له وضع خاص ، لانه يدفع ثمن ما يشتريه من المال الذى يحصل عليه من البائع باعتباره قروضا ومخصصات سوف نوضح موردها ومصيرها .

ولا يفوتنا ان نقرر أن تحسن التجارة بين فرنسا والجزائر منـذ عام ١٩٥٤ مصدره النفقات الاستثنائية التى يسببها وجـود جيش فرنسي عظيم فى الجزائر ، وقد سبق أن شوهد مثل هذا الوضع أثناء

وجود الجيش الفرنسي المحارب في الهند الصينية ، فلما عاد السلام الى ربوع فتنام تدهورت الحالة وكان رد الفعـــل أقرب الى كارثة اقتصادية عامة ، وهذا ما يخشى حدوثه في الجزائر عندما يوضع حد للحرب الحالية .

ومما يجدر ذكره أن وجود نحو نصف مليون جندي في الجـزائر جعل الطلب يزداد على الخمور والتبغ والاغذية المحفوظة فقط ، وعم الكساد بقية الاصناف كالاثاث بأنواعه والآلات وتوابعها وبنوع خاص الجرارات والمحاريث الزراعية التي وقف بيعها بتاتا .

توظيف الاموال والتصنيع

الاستعمار الفرنسي يوظف في الجزائر رءوس أموال فرنسية أكثر من أي مستعمرة أخرى ، ولكن على الرغم من ذلك فان مجموع هــذه الاموال لا يزال ضئيلا نسبيا أسوة بالاموال المســتغلة في كل بلد متخلف .

واذا قارنا رءوس الاموال الموظفة في فرنسا في عام ١٩٥٤ بمثلها الموظفة في الجزائر اتضح ان نسبة ما يخص كل فرد في فرنســـا ٥٠٫٠٠٠ فرنك ، بينما لا يخص كل فرد في الجزائر سوى ٩٫٤٠٠ فرنك ، هذا مع ملاحظة ان رءوس الاموال الفرنسية الموظفـــة في الجزائر موجهة توجيها له مغزاه ، فبعضها استعمل للمضاربة في مشترى المباني ، ذات الايراد وما يماثلها ، والباقي اســـتخدم في تحسين وسائل الانتاج العصرية بالاراضي التي يملكها المستعمرون ، وفي بناء الموانيء لتسهيل تجارة الاستعمار ، وفي زيادة انتاج المناجم والبترول والمواصلات العسكرية برا وجوا ، وهكذا نرى أنه لم ينفق أي مبلغ لاقامة صناعة أساسية في الجزائر تتيح لها تقييم جميـــع مواردها الطبيعية .

وقد عمدت الدعاية الفرنسية الى الاشادة بعمل فرنسا العظيم

فى الجزائر وانشائها الطرق والسكك الحديدية والسدود والمدارس والمستشفيات ، وسنبحث بصفة خاصة النتائج الاجتماعية التى نجمت عن هذه الاعمال خصوصا ما تم تحقيقه فى نواحي التعليم والصحة العامة . أجل لقد انشأت فرنسا منذ فتح الجزائر طرق مواصلات حديثة ، ولكن شبكات الطرق وسكك الحديد لا تفى بالغرض المطلوب منها، لان أكثرها أقيم وفقا للضروريات العسكرية ولما تقتضيه الحروب المتوالية .

ويلاحظ أن هذه الشبكات كثيرة جدا فى المناطق الاوروبية ، بينما يبقى أهالى البلاد فى شبه عزلة بسبب نقص وسائل المواصلات . ونضرب مثلا على ذلك ما عاناه سكان بنى راشـــد على أثر زلزال « أورليانس فيل » لان وسائل الاسعاف لم تصل اليهم الا بعد أيام طويلة لعدم وجود طريق يصل الى بلدتهم ، ويمكن أن يقال مثل ذلك عن السكك الحديدية ، وبالقاء نظرة على الخريطة يتضح الدور الذى تقوم به هذه السكك التى لا تتصل بجميع نواحى البلاد ، بل تكتفى بأنها صلة وصل بين مراكز الانتاج الزراعى أو المناجم وبين موانىء التصدير . وأكثر هذه السكك أقامتها شركات خاصـــة لمساعدة الحكومة بطريقة أسفرت عن فضائح مشينة اذ ذاك ، وهكذا كانت أيضا سياسة بناء السدود : ففى الجزائر ١٢ سدا تم بناؤها لرى أراضى المستعمرين ، وتستطيع هذه السدود رى ١٤٨٫٠٠٠ هكتار من الاراضى ولكنها حتى عام ١٩٥٦ لم تكن تروى سوى ٤٣٫٠٠٠ هكتار ، وفى الوقت الذى يملك فيه الاوروبيون ٨٠ ٪ من الاراضى لا تزيد المساحات التى يملكها أهالى البلاد عن ربع الارض المروية بهذه المناطق ، وعلى هذا المنوال يحرم أهالى البلاد من أهم موارد المياه فى بلادهم .

وقد يقال ان الطاقة المائية تستخدم فى انتاج الطاقة الكهربائية ، إلا أن الواقع يدل على أن الطاقة المائية لا تنتج سوى ٣٠ ٪ من الطاقة

الكهربائية المستهلكة ، وكان استهلاك الكهرباء في عام ١٩٥٥ بنسبة ٨٠ كيلوات للشخص الواحد في الجزائر ، بينما ترتفع هذه النسبة في فرنسا الى ١١٥٠ كيلوات للفرد ٠

ويجب ألا نندهش من عدم حـــركة التصنيع في الجزائر ، لأن عدم التصنيع كان يسير وفقا لخطة مبيتة لا تسهل الوسائل التي تتيح منافسة البلد المستعمر ، والصناعات التي يملكها الفرنسيون من ناحية أخرى تستخدم ٣٠٥٫٠٠٠ من العمال ، بينما أهالي البلاد لا يستخدمون في صناعاتهم سوى ٢٣٫٠٠٠ عامل ، وكانت الجزائر تستطيع التوسع في التصنيع الى مدى بعيد اذا ازدادت الاموال الموظفة وأحسن توجيهها ولكن الرأسماليين المسيطرين على انتاج الجزائر لا يوظفون في البلاد سوى جزء من رأسمالهم ويستولون على المكاسب، ولا يبالون الا بتحسين وسائل الربح وزيادة ايراداتهم ٠

الفصل السابع

النتائج الاجتماعية ومستوى المعيشة

يؤخذ من أرقام الاحصاءات التى وضعتها لجنـــة ماسيتيول فى تقريرها أن أكثر من ستة ملايين من القرويين الجزائريين ينقص ايرادهم السنوى عن ٢٠٫٠٠٠ فرنك (أقل من عشرين جنيهـــا مصريا فى السنة) ، ويقال مثل هذا القول عن عدد كبير من الجزائريين سكان المدن ، وقد اعترفت الدوائر الدولية بأن مستوى المعيشة فى الجزائر هو أحط مستوى فى العالم بأسره ، وهذا الاعتراف الرسمى يكذب كل ما يدعيه الفرنسيون ، وينفى أكاذيبهم التى ينشرونها عن حسنات الاستعمار الفرنسى ·

وهذا ما حمل عددا كبيرا من أهالى القرى على الهجرة الى المدن الكبيرة للقيام بأحط الاعمال التى لا تكاد تكسبهم ما يسدون به رمقهم ، كما اضطر كثير من الجزائريين للرحيل الى فرنسا للعمل فى المناجم والمبانى والمصانع وغيرها من الاعمال اليدوية والمهن ، وقد بلغ عددهم نحو نصف مليون ، ويعمل أكثرهم فى باريس وفى منطقـــة ليون ومرسيليا ، ومن فرنسا يرسلون الى أسرهم فى الجزائر المساعدات التى تساعدهم على الحياة ولا يزيد معدلها فى العام عن ٢٣ جنيهـا لكل فرد فى الجزائر ، وهو مبلغ لا يكاد يسد الرمق ويحول دون الموت ونجم عن هذا الفقر وسوء التغذية وقذارة المسكن أو المأوى انتشار أمراض كثيرة أهمها مرض السل · وقد جاء فى تقرير أحد كبـــار الاطباء أن عدد الذين يموتون بالسل من الجزائريين يزيد خمســة أضعاف عمن يموتون به من الفرنسيين

ويبلغ عدد المصابين بالسل فى الجزائر نحو ٤٠٠٫٠٠٠ شخص ، بينما لا يزيد عدد المرضى به فى فرنسا عن ربع هذا العدد ، وبينما

نرى ان فى فرنسا ١٩٥ مصحا ومستشفى للســـل لا يوجد فى الجزائر كلها سوى خمسة مصحات ، واذا قارنا بين عدد الوفيات تبين أن نسبة الوفيات بين الاهالى الاوروبيـــين هى ١٠٦ لكل ١٠٫٠٠٠ شخص وبين الاهالى الجزائريين ١٩٤ لكل ١٠٫٠٠٠ شخص ، اما وفيات الاطفال فهى ٤٠ لكل ١٠٠٠ طفل من المواليد الاوروبيين و١٦٧ لكل ٢٠٠٠ من المواليد الجزائريين .

ويتبجح الاستعماريون بأعمالهم المجيدة فى الجزائر ويدللون بذلك على الزيادة المطردة فى عدد السكان من الجزائريين، ولكن الاحصاءات العالمية تدل بوضوح على أن ازدياد عدد السكان ليس دليلا على رقى الامم وتقدمها ، بل يدل أحيانا على العكس .

غير أن تقدم الامم يقاس بنسبة متوسط عمر الفرد فيها ، فهـذا المتوسط لا يزيد على ٣٠ عاما للفرد فى الجزائر لاكثر من نصف سكانها ، فى حين أن ٥ ٪ فقط يبلغ متوسط عمرهم ٦٠ سنة

أثر الاستعمار فى الثقافة والدين

كانت العلوم مزدهرة نسبيا قبل دخول الفرنسـيين الجزائر عام ١٨٣٠ ، وعلى الرغم من تخلف العرب فى مجال الحضارة فان الميـل للعلم والمعرفة كان متأصلا فى النفوس ، وكان فى الجزائر عدد كبير من رجال الادب يتمتعون بقسط وافر من الاعتبـــار لدى المجتمع ، وكانت التفرقة العنصرية تبدو فى أبرز مظاهرها بمجال التعليم . ودل التقويم العام فى الجزائر لعام ١٩٥٤ على أن عدد التلاميذ الذين تم تسجيلهم للعام الدراسى ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ كان ١١٠٫٠٠٠ تلميذ من أصل أوروبى ، و ٢٩٣٫٠٠٠ تلميذ من الجزائريين .

ويؤخذ من احصاء هذا العام أن عدد الناشئين الجزائريين الذين فى سن التعليم (من ٦ الى ١٤ عاما) كان نحو مليونين ، وفى الوقت

الذى تبلغ فيه نسبةالناشئين الاوربيين ٨٥ ٪ لم تكن تزيد نسبة الجزائريين عن ١٥ ٪

وطالما استنكرت هيئة التعليم فى الجزائر قلة الجهود المبذولة لانقاص عدد الاولاد الجزائريين الذين لا يجدون مقاعد فىالمدارس ، ولكن صيحتها ذهبت أدراج الرياح ، وقد خفضت الحكومةالاعتمادات المدرسية ٤٦٦ مليون فرنك في عام ١٩٥٣ وعام ١٩٥٥ ، واعترفت بكل وقاحة بعجزها عن حل هذه المشكلة مدعية كما صرحت بذلك مجلة « الجزائر » - أن تعليم مليونى تلميذ فى المدارس عمل لا يمكن تحقيقه لان انشاء مدارس تكفى هذا العدد يمتص ميزانية البلاد بأسرها ، ويتكلف أكثر من ١٠٠ مليار فرنك ، فضلا عما يترتب عليه من تدبير مرتبات ٤٠٫٠٠٠ مدرس اضافي ٠

وقد فات مسيو لاكوست أنه بهذه الحجج التى يقدمها يعترف ضمنا بعدم كفاية المدارس ، وبنقص عدد المدرسين ولكنه لا يوضح الاسباب الحقيقية لضيق الميزانية الذى تعود أسبابه الاساسية الى سوء النظام الاستعمارى ، وتبدو التفرقة العنصرية بأجلى مظاهرها في معاهد التعليم الثانوى والتعليم العالى ، اذ تتراوح نسبة الطلبة الجزائريين بين ١٠ و ٢٠ ٪ فقط

وقد صرح جانسوت فى أحد تقاريره عن جامعة الجزائر فقال : ان قبول الطلبة الجزائريين المسلمين فى الجامعة هو شر لا بد منه ،فانهم رغم تمكينهم من جميع المواد فانهم يعيشون على هامش الحياة الدراسية لانهم بين منبوذ من رفقائه ، أو منبوذ من المدرسين ٠

ويبدو من هذا التقرير أن الجامعة تدأب على بذر بذور التفرقة العنصرية بشكل واضح ، لأن الاستبداد الثقافى لم يكن يكفيه ترك الجزائريين يتخبطون فى ظلمات الجهل، بل كان يعمل أيضا على محو الشخصية الجزائرية بجميع الوسائل ، فكان يعمل على وضع ستار كثيف على ماضى الجزائر ويلقى فى روع الجيل الجديد أن هذه البلاد

كانت بدائية يطمس الجهل عقولها قبل دخول الفرنسيين وأن اللغة العربية كانت تعتبر لغة أجنبية تدرس على هذا الاساس ويمنع تدريسها فى أغلب الاحيان ، ولكن هيئة كبار العلماء المسلمين توصلت الى تأسيس ٣٠٠ مدرسة للثقافة العربية التقليدية ، فدأبت الحكومة على محاربة هذه المدارس باقفالها لأوهى الاسباب ، ووضع مدرسيها تحت مراقبة البوليس أو اعتقالهم ومنع المخصصات عن أسرهم وعن الاسر التى ترسل أولادها الى هذه المدارس ، وقد أقفلت أبواب جميع هذه المدارس تقريبا على أثر الحوادث الاخيرة ، ويبدو هذا الاستبداد والعسف الثقافي في العمل على خنق كل مظاهرة أدبية أو فنية ذات صبغة قومية ، فانه قد حظر على أشهر الكتاب الجزائريين اصدار مؤلفاتهم باللغة العربية ، ويجب عليهم إصدارها فى فرنسا باللغة الفرنسية .

ومحو الشخصية الجزائرية الدينية يسير على نفس الوتيرة التى سار عليها الاستبداد الثقافى ، وعلى الرغم من الاتفاق المبرم عام ١٨٣٠ مع الجنرال بورمون الذى تعهد الفاتحون فيه باحترام الديانة الاسلامية ومؤسساتها فان كثيرا من المساجد حولت الى كاتدرائيات وكنائس وخاصة فى مدينتى الجزائر وقسطنطينة .

وعلى الرغم من القانون الذى يجعل الأديان مستقلة عن الدولة فان الدين الاسلامى يخضع لوصاية المستعمرين ، لان الحكومة هى التى تختار رجال الفتوى والائمة وتحدد مرتباتهم وتحرم المسلمين حتى من حرية اختيار رجال الدين . ومع أن النظام الاخير الذى أعلن فى الجزائر عام ١٩٤٧ عين لجانا خاصة لشئون المسلمين فان هذه اللجان مؤلفة من بعض صنائع المستعمرين وأذنابهم ولايملك الجزائريون من أمرها شيئا ، وتتدخل فى شئون الدين بما لا يتفق أبدا وأصول الشريعة الاسلامية .

التعسف السياسى

منذ الحرب العالمية الثانية الى الثورة الاخيرة

فى عامى ١٩٤٤ و١٩٤٥ أصدرت لجنة التحرير الوطنى الفرنسية والحكومة المؤقتة قوانين أجرت بموجبها بعض الاصلاح على نظام الحكم فى الجزائر ولكنها لم تمس المشكلة فى صميمها ، وعلى الرغم من هذه الاصلاحات الضئيلة الأثر فان هذه الفترة تعتبر صفحة سوداء فى تاريخ الجزائر بسبب الحوادث الخطيرة التى نشبت فى قسطنطينة فى شهر مايو عام ١٩٤٥

لقد ساهم الشعب الجزائرى فى القضاء على الفاشية الالمانية والايطالية خلال الحرب العالمية الثانية ، ووثق بمواعيد الحلفاء فى وضع حد للاستعباد الاستعمارى بعد الفوز بالنصر ،وأخذ يعرب عن أمانيه بحرارة ، والفت منظمات سياسية جديدة لها مطالب لم تتبلور ولكنها مطبوعة بطابع القومية ، وكان هذا التطور مثار قلق عظيم للاستعمار الذى لم يجرؤ على الاعتراض المكشوف بسبب موجة الديموقراطية الطاغية فى جميع أنحاء العالم على أثر انتصار الحلفاء ، ولكن المستعمرين الجزائريين كانوا من أشد أنصار ومؤيدى بقاء نير الوصاية الاستعمارية مثقلا أعناق الجزائريين،واغتنم دعاة الاستعمار قيام المظاهرات على أثر انتصار ٨ مايو عام ١٩٤٥ وعملوا على قلب هذه المظاهرات الى أعمال استفزازية تدخلت فيها الحكومة وأدت الى حوادث دامية طبعت أحيانا بطابع التفرقة والبغضاء العنصرية .

واتخذت الحكومة من هذه الحوادث ذريعة للقيام بأعمال قمع عنيف اشتركت فيه القوات المسلحة والمعمرين ورجال « بتسان » الذين تحولوا الى منظمات تعمل للمحافظة على الامن .

وقام الطراد الفرنسى دوجوى تروان بقصف السواحل بقنابل

مدافعه للفتك بالاهالى العزل ، ونفذ الاعدام دون محاكمة فى عدد كبير من الاهالى ، وأحرقت القرى وكانت ضحايا هذه المجزرة نحو ٤٠٫٠٠٠ قتيل

ورفضت حكومة الجزائر الضالعة مع هيئة الاستعمار ايفاد لجنة تحقيق عينتها الجمعية التشريعية فى باريس ، فعملت هذهالجمعية الى اصدار العفو العام عن ٥٠٠٠ جزائرى كانوا قد اعتقلوا على أثر هذه الحوادث الدامية ولزمت الحكومة الصمت المطلق ازاء هـذه الحوادث وألقت عليها ستارا كثيفا من الكتمان ٠

وفى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٤٧ أصدرت الجمعية التأسيسية الثانية قانون الجزائر الجديد الذى أعلن أن الجزائر هىمجموعة منالولايات لها شخصيتها المدنية واستقلالها المالى ونظامها الخاص ، وهـذا النصيعترف ضمنا بأن الجزائر ليست فرنسيةواستند هذا القانون الى مبادىء ديموقراطيـــة لم يتم تطبيقها مطلقا ٠ واعتبر جميـــع الجزائريين مواطنين فرنسيين بصرف النظر عن أحوالهم الشخصية أى أنهم خاضعون للقوانين الفرنسية ٠ ولكن هذا المبدأ طبق بطريقة عكسية على الرغم من نص القانون الصريح القائل بضمان استقلال الشريعة الاسلامية ، ووعد القانون بتنظيم تعليم اللغة العربية تعليما يشمل جميع الدرجات ، ولم ينفذ من هذه الوعود شىء ، وتمتاليف هيئات جديدة محلية لا تتفق مع أمانى الاهالى القومية ومطالبهم الديموقراطية ، ووضعوا قانونا جديدا للانتخابات على درجتـــين ، ولكنهم كانوا دائما يعمدون الى تزييف الانتخابات وتزويرها بجميع ما لديهم من الوسائل حتى أن كلمـــة « الانتخاب على الطريقـة الجزائرية » أصبحت فى فرنسا وغيرها من البلاد دليلا على تدخل الحكومة فى التزييف والتزوير ٠

وكان من نتائج هذه الانتخابات الزائفـــة أنه فى مارس ١٩٤٩ نال أنصار الحكومة ٢١٠٢ صوت من ٢١٠٧ ناخبا فى عينباسم

و١١٥٤ صوتا من ١١٥٤ ناخبا فى بئر ربالو ، و٥٧١٧ صوتا من ٥٧١٧ ناخبا فى اورليانسفيل ، واثناء انتخاب الجمعيـة الاولى الجزائرية اعتقلت الحكومة من بين ٦٠ مرشحا ٣٨ من أعضـاء « حركة انتصار الحريات الديموقراطية » قبل بداية الاقتراع ، ولم تتورع السلطات عن اراقة الدماء فى بعض الدوائر لكى تضمن الفوز لأنصارها . وأمام فساد هـذا النظام طلب الحزب الشيوعى الجزائرى الغاء الجمعية الجزائرية فى عام ١٩٥٢ والغاء هذا النظام الذى يقضى بانشائها .

وظهر من الحكومات الفرنسية المتعاقبة التى عملت على طمس الحريات الديموقراطية والغائها رد فعل واضح فمنعت الاجتماعات العامة ، وصـادرت الصحف ومنعت صدورها ، وتولى البوليس والقضاء القيام بأعمال قمع منظمة ضد أمانى الشـعب ومطالبه ، وكانت الحكومة « تطبخ » مؤامرات سياسية مزعومة تتخذها ذريعة لفرض عقوبات قاسية ضد مئات من الوطنيين الجزائريين . وفى عام ١٩٥١ صدرت أحكام ضد ٢٥١ من الوطنيين لاسباب سياسـية ، وكان المتهمون يصرخون فى المحاكم بما عانوه من الاضطهادوالتعذيب أثناء التحقيق ، وفى أثناء هذه الفترة صدرت الاحكام ضد الزعماء الجزائريين ومنهم : العـربى البوهلى سكرتير الحـزب الشـيوعى الجزائرى ، واحمد مزرنا رئيس « حركة انتصـار الحريات » ، وفرحات عباس سكرتير الاتحاد الديمـوقراطى . وحكم بالنفى على الزعيم مصالى الحاج .

اقرار الامن والاصلاح

فى أول نوفمبر عام ١٩٥٤ أذاعت الحـكومة الجـزائرية بلاغا جاء فيه :

« فى الليلة الماضية وقعت فى أنحاء مختلفة من البلاد وخاصة فى منطقة قسطنطينة وجبال أوراس ٣٠ حادثة اغتيال ارتكبتها جماعات صغيرة من الارهابيين »

وكانت هذه الحوادث هى النذير ببدء ما يمكن تسميته « بحرب الجزائر »

لقد بدأ الشعب الجزائرى كفاحه المسلح واتسع نطاق هذا الكفاح حتى شمل البلاد بأسرها واشترك فيه عشرات الالوف من الجزائريين على اختلاف أصولهم وآرائهم وساندهم الشعب الجزائرى بأسره ، وأعلنت المنظمات التى تدير هذه الحركة أن الغاية منها هى الحصول على استقلال الجزائر ، وكانت هذه هى المرة الاولى التى يبرز فيها بقوة وعزم اجماع الشعب الجزائرى على هذا العمل القومى ·

وامام هذه الحالة باشر رجال السلطة الفرنسيون الاستعدادلعمل عسكرى واسع النطاق ليحاولوا قمع ما سموه بالتمرد وارتفع عدد القوات الفرنسية فى الجزائر من ٨٠ ألف جندى فى عام ١٩٥٧ الى ٥٠٠ر٠٠٠ جندى فى عام ١٩٥٧ ولم يسبق فى تاريخ فرنسا الاستعمارى أن جردت حملة استعمارية بهذه الضخامة،وهذه الحرب حديثة ، ونحن نشاهد وقائعها بأنفسنا ولذلك نكتفى بذكر بعض مظاهرها ومراحلها السياسية وتصرفات فرنسا فى اقرار الامن واتباعها نفس الطرق المعروفة لدى الاستعماريين لكى تزداد نتائجها خطورة كلما طال أمد الحرب ·

لقد بدأت العمليات الحربية منذ شهر نوفمبر١٩٥٤ وكان منديس فرانس رئيسا لوزراء فرنسا ، وفرنسوا ميتران وزيرا للداخلية ، وفى ١٢ نوفمبر ١٩٥٤ ألقت الطائرات الفرنسية قنابلها على قرى جبل أوراس التى اعتبرتها بؤرة الثورة وألقت منشورات تتضمن ما يلى :

« سوف تنزل الكارثة قريبا على رءوس المتمردين ثم يسود السلام الفرنسى »

وفى عام ١٩٥٥ تولى ادجار فور رياسة الوزارة الفرنسية وأعلنت حالة الطوارىء ، وعمل جاك سوستيل على تطبيق التدابير الخاصة بحالة الطوارىء بكل ما أوتى من عزم واجتهاد ، وقانون الطوارىء يلغى شرعية الحقوق الدستورية ، ويولى الجيش والحكومة سلطات استثنائية بالجزائر ، ولهذا ألغيت جميع منظمات الحركة الوطنية واحزابها واضطرت كلها الى العمل فى الخفاء ، وزالت جميع مظاهر الحريات العامة ، وفرضت الرقابة رسميا على الصحف ، ونفى كثيرون من الديموقراطيين الى الخارج ، وبدأ الناس يتحدثون عن فرق التعذيب ، وضاقت السجون والمعتقلات بالمشبوهين ، واعتقل كثيرون من الاوروبيين المؤيدين للحركة الوطنية ، كما اعتقل كل من وجهت اليه شبهة الاشتراك فى الكفاح المسلح ، وعومل الجميع معاملة المجرمين العاديين ، وكانت المحاكم تغص بالمتهمين وتصدر أحكامها بالجملة وبعض أحكامها الاعدام .

ولكن الكفاح المسلح لم يضعف ، بل على العكس زاد نطاقه اتساعا، واتخذ طابع الحرب الحقيقية ، وتوالت الاعمال الحربية يوميا ، واندلعت نيران الكفاح بجميع أرجاء الجزائر بصورة متقطعة ، ولكنها كانت كلها عنيفة ، قاسية ، دامية ، ليس للرحمة فيها مجال ، واتسعت الشقة بين الجانبين المتحاربين على أثر أعمال التخريب والتدمير واحراق العزب والاشتباكات والاعمال الانتقامية التى كان يقوم بها الفرنسيون والحملات التأديبية ضد الاهالى العزل الذين كانوا يعتبرون شركاء متواطئين مع الثوار .

وعلى أثر الانتخابات التى جرت فى فرنسا يوم ٢ يناير عام١٩٥٦ وقيام حكومة اشتراكية ، جاء «جى موليه» الى الجزائر وتم استدعاء سوستيل الى فرنسا وحل محله الجنرال كاترو ، فاعتبر غلاة المستعمرين هذه الحركة دليلا على تغيير فى سياسة فرنسا نحو الجزائر ، وقاموا بمظاهرات عنيفة ضد جى موليه اتخذت طابع الفاشية ، فعاد جى موليه الى فرنسا وأعلن ادانة هذه المظاهرات

العنيفة ، ووصف القائمين بها بأنهم أقلية من أصحاب الاملاك والاراضي الذين يدافعون عن مصالحهم الخاصة ومراكزهم السياسية التي لا يمكن أن تمت الى فرنسا بصلة ، وعلى الرغم من ذلك فقد عمد جي موليه الى ترضيتهم بتعيينه روبير لاكوست حاكما عاما للجزائر بدل الجنرال كاترو ، فطلب لاكوست منحه « سلطات خاصة » ليتمكن من الاسراع في ايجاد حل سلمي ، وأكد ضرورة الاعتراف « بشخصية الجزائر » وربط فرنسا بالجزائر باتفاقات مقبولة وبموجب مفاوضات ، وأعلن جاك دوكلو في باريس أن الحزب الشيوعي الفرنسي يرى أن على الحكومة أن تبدأ المفاوضات مع المحاربين الجزائريين ، ودعا الى التفاهم بين العمال وطبقات الشعب وقال ان « السلطات الخاصة » لازمة لاقرار السلام واجبار كبار أصحاب الاملاك في الجزائر على العدول عن امتيازاتهم ، ثم قال ان هذه السلطات تقوم أيضا على اتخاذ تدابير عسكرية لا يوافق عليها الحزب الشيوعي ، وان السعي الى ايجاد حل بالقوة سعي فاشل . وقد ظهرت آثار فشله في فيتنام ومراكش وتونس ، ولكن السلطات الخاصة منحت لروبير لاكوست يوم ١٢ مارس وظهرت نيته السيئة باستعمال هذه السلطات بطريقة مخالفة لتصريحات جي موليه .

وفي هذه الاثناء كان كبار الجزائريين حتى الذين كانوا من صنائع الحكومة الفرنسية وموظفيها قد أعلنوا تأييدهم للثورة وتضامنهم مع المحاربين ، وكان عملهم هذا أعظم دليل على قوة الحركة القومية ، فعمد لاكوست الى حل الجمعية الجزائرية يوم ١٢ ابريل عام ١٩٥٦ وأعلن « مناطق محرمة » لاماكن كثيرة أصبحت تحت رحمة الجيش .. وتضاعف عدد القوات المسلحة الفرنسية ، وتم استدعاء الاحتياطي ، وانتشرت أعمال القمع بأفظع صورها ، وعمت الفوضى الهيئات القضائية التي أصبحت كأنها لم تكن ، وظهرت هيئات خاصة ومنها وحدات جنود المظلات التي خولت سلطة اعتقال المشبوهين واستجوابهم ومعاقبتهم كما يحلو لها دون أي اشراف .

فزادت أعمال الانتقام والتعطش الى اراقة الدماء كما زادت أحكام الاعدام لأوهى الاسباب وأهونها ، وعلى هذه الحال سارت أعمال اقرار السلام وبهذا الوضع الذى يسود فيه الدمار والقتـــل كانت الحكومة تزعم أنها قادرة على ايجاد حل سياسى للمشكلة باصدارها عددا من المراسيم .

ولكن شعور الكراهية الذى أذكته المعارك العربيـة فى نفوس الجزائريين لم يعد يرضى بما تمنحه فرنسا أو تجود به من الانظمة ، وأصبح من حق الشعب الجزائرى أن يحدد بنفسه ما يناسبه ، ولذلك آلت الى الفشل كل محاولة للاصلاح يقترحها جانب واحد .

ومن أمثلة هذه المراسيم مرسوم الاصلاح الزراعى الخاص باعادة توزيع الاراضى على الاسر الفقيرة ، فقد ثبت بعد البحث أن مساحة الارض المروية التى تقرر توزيعهـا تبلغ ٤٠٫٠٠٠ هكتار لا تكفى لعشرة آلاف أسرة أو عشرين ألف أسرة اذا وزعت بمعدل هكتارين أو ثلاثة لكل أسرة ، بينما المشكلة تستدعى توزيع مساحات من الاراضى لمليون أسرة فقيرة ، واتجهت النية الى شراء أراضى الشركة الجزائرية والشركة الجنفوازية ، وكانت هاتان الشركتان قد حصلتا على هذه الاراضى مجانا بموجب تنازل رسمى ، فطلبت الشركة الجزائرية ٧٥٫٠٠٠ فرنك ثمنا للهكتار ، وطلبت الشركة الجنفوازية ٨٠٫٠٠٠ فرنك تدفع على آجال بفائدة ٦ ٪ . وامام هـذه الاثمان البـاهظة ارتفعت بسرعة قيمة أسهم الشركتين فى بورصة باريس .

ومن هذه الاصلاحات تقسيم الجزائر الى ١٢ مقاطعة محـددة المعالم بطريقة تجعل المناطق المركزة فيها الجاليات الاوروبية مناطق خاصة تسود فيها التفرقة العنصرية كما هـو الحال فى افريقيا الجنوبية .

وهكذا يبقى المواطنون الجزائريون بعيدين عن المناطق الخصبة ، وعلى هذا الحال كانت الاصلاحات تصدر من جانب واحد ، وتعمل على صيانة حقوق ومصالح هذا الجانب فقط .

الفصل الثامن

الشعب الجزائرى والحركة الوطنية

ينقسم الشعب الجزائرى الى مجموعتين رئيسيتين هما : الاهالى العرب والبربر من سلالة سكان الجـزائر قبل الفتح الفرنسى ، والاهالى الذين هم من أصل أوروبى من سلالة المستعمرين ، وتختلف هاتان المجموعتان اختلافا كبيرا من وجهة العدد وتزداد شقة هذا الاختلاف بصورة مطردة • والبيان التالى للاحصائيات الرسمية خير دليل على ذلك :

السنة	أوروبيون	مسلمون
١٩٣٦	٩٤٦ر٠٠٠	٦ر٢٠١ر٠٠٠
١٩٤٨	٩٢٢ر٠٠٠	٧ر٦٧٩ر٠٠٠
١٩٥٤	٩٨٤ر٠٠٠	٨ر٤٤٩ر٠٠٠

وتوضح هذه الارقام أن عدد الاهالى الاوروبيين مستقر على حاله تقريبا ، بينما عدد الاهالى الجزائريين يزداد بسرعة بنسـبة مليونين خلال كل ١٨ سنة ، وكانت نسبة الجزائريين ٩٠ ٪ فى عام ١٩٥٤ ولكنها زادت فى الوقت الحاضر

وأغلب المسلمين فى الجـزائر من العنصر الابيض وان اختلفت أصولهم كما هو الحال فى جميع الشعوب ، أما اللغة فان أكثر من ثلثى الجزائريين يتحدثون العربية وهى لغتهم الاصلية ، وقد احتفظ أقل من ثلث الاهالى بلغة البربر ، ومنهم أهالى منطقة القبائل ، وجبال أوراس وبعض سكان الصحارى والطوارق ، واحتفظ البربر ببعض تقاليد ثقافية واجتماعية خاصة بهم من قبل الفتح الاسلامى ، ولكنهم اعتنقوا الاسلام وازدادت الشريعة الاسلامية رسوخا فيهم حتى طغت

على عوائدهم البربرية ، وأصبحوا يتحدثون بلغتين : البربرية فى محيط قبائلهم وأسرهم ، والعربية فى المحيط العام ٠

وهكذا أصبحت اللغة العربية معتبرة اللغة القومية فى جميع أنحاء الجزائر ، وعبثا حاول المستعمرون بذر بذور الشقاق بين البربر والعرب ، فلم تزدهما هذه المحاولات الا تقاربا وتضامنا ٠

لقد دخل العرب الفاتحون الى المغرب من بدو وحضر منذ القرن الحادى عشر واختلطوا بسكانه البربر ، ونتج عن كل هذا الاختلاط والتزاوج هذا الجيل الجديد من القبائل التى تتكلم العربية وتتخلق بأخلاق العرب ٠

ولما عمد النظام الاستعمارى الى هدم نظام القبائل وشرد قبائل عدة من مناطقها الى مناطق أخرى اختلط البربر بالعرب ورحل أكثرهم الى المدن هربا من الصحارى والفاقه فساعد ذلك على انتشار اللغة العربية بين الجميع ، ومع ذلك لا تزال اللغة العامية خليطا من كلام البربر وبعض الالفاظ الفرنسية ، لان اللغة العربية الفصحى غير منتشرة بصورة عامة لدى عموم القبائل ٠

وتبلغ نسبة سكان الارياف ٨٠ ٪ من مجموع الشعب الجزائرى ، وتختلف طرق المعيشة التقليدية لدى سكان الارياف عن حياة الحضر فى مناطق تميل الى حياة البداوة على اختلاف مظاهرها، وتعتبر زراعة اشجار التين والزيتون من أهم ثمرات القرويين وموارد رزقهم ، وهذا ما جعل المستعمرين يدأبون على اتلاف هذه الاشجار لارغام الاهالى على الخضوع والاستسلام ٠

ويحتم سكان السهول بزراعة الحبوب بوسائلهم البدائية ، بينما القبائل البدوية تعيش فى ظروف قاسية معرضة للبرد القارس والحر اللافح وفتك الجفاف بالمحاصيل ، وهى تعيش من تربية المواشى كالغنم والخيل والجمال ، ولا تزال بعض القبائل كأولاد نايل والاربع

وغيرها تحتفظ بتقاليدها الاستقلالية ، وهذا ما يفسر لنا دوافع اشتراكها بحماس فى المعارك السابقة والمعارك الحالية •

وأكثر سكان الصحارى يتجمعون فى الواحات ويعيشون عيشة أقرب الى الحضارة حيث يستثمرون غابات النخيل والحدائق التى يروونها من المياه الجوفية ، وتوجد فى بعض الواحات جماعات من الزنوج يعرفون بالحراتين هم سلالة العبيد القدماء • أما البدو الطوارق فهم قليلون ويفخرون باستقلالهم وصلابة عودهم ويعيشون من تربية الجمال التى يستخدمونها مطايا ويقتاتون بألبانها ولحومها •

والى جانب هذه المجموعات المختلفة من سكان الجزائر تقوم الطبقة المتوسطة من سكان المدن والقرى وهى طبقة هامة كان النظام الاستعمارى يعتمد عليها فى كثير من الاحيان ، ومن هذه الطبقة رجال السيف والزعامة الذين فقدوا الكثير من سلطتهم ونفوذهم بسبب ضياع ثرواتهم ، وقد اختلطت بهذه الطبقة عناصر من الاتراك ورجال القبائل فشكلوا طبقة خاصة من رجال الصناعة والتجارة ، وكانت هذه الطبقة التقدمية تواصل المطالبة بالاصلاح بسبب ما كانت تعانيه من عدم المساواة السياسية ، ولما فشلت جميع محاولاتها لم تجد بدا من الانضمام الى الحركة القومية الكبرى وتأييدها بجميع ما لديها من امكانيات ، الا أن هذه الفئة لها دور محدود فى اقتصاديات البلاد ، لان رأس المال الفرنسى وثروات البلاد الرئيسية يملكها المستعمرون •

هذا فيما يختص بأهالى البلاد الاصليين ، أما الاوربيون فانهم على الرغم من أنهم أغلب العنصر الفرنسى الذى يعتبر نفسه مختلفا عن سكان فرنسا فانهم يشكلون خليطا من الاسبانيين والايطاليين والمالطيين عدا نسبة كبيرة من اليهود الجزائريين الذين اختلطوا بهم واصبحوا معهم يؤلفون جالية جديدة تعتبر الجزائر موطنا لها ، كما أن مواردهم تعادل ٢٠ ٪ من موارد الاوروبيين المقيمين فى أوروبا ،

ويبلغ عدد العمال والمستخدمين الاوروبيين ٢٣٩٠٠٠ شخص يقابلهم ٣٣٠٠٠٠ من العمال والمستخدمين الجزائريين فى مرافق الصناعة والتجارة والوظائف الادارية والمصالح العامة ، ويشعر الاوروبيون والجزائريون بأنهم خاضعون لاستغلال أصحاب الثروات الكبرى بدرجات متفاوتة ، كما ان أكثرهم أصبح يعتقد بضرورة التفاهم فيما بينهم لمواجهة المستعمر وهو العدو الاكبر لهم جميعا •

وقد لعب العمال الجزائريون دورا عظيما فى حركة الوحدة الجزائرية كما كان للحركة النقابية الفضل فى خلق الوعي الجزائري، وتعتبر هذه النقابات المدرسة الكبرى لنشوء هذا الوعى ، ويعود الفضل الاكبر فى تآخي العمال من عرب وبربر ويهود وأوروبيين الى نشاط الحزب الشيوعى الجزائرى ، وخير دليل على ذلك أن ربع العمال الاوربيين فى الاصل صوتوا لسياسة الدفاع التى تبناها الحزب الشيوعى فى انتخابات عام ١٩٥١

وبرز الاتحاد العمالى فى أجل معانيه بين طبقة العمال الجزائريين المسلمين وفى برامج أحزابهم التى أيدت الحركة القومية تأييدا تاما ، ومنذ ذلك الحين اشتدت وطأة الكفاح الجزائرى ، وسعى المستعمرون الى بذر بذور الشقاق وتوسيع شقة الخلاف بين العنصر الاوروبى والعنصر الجزائرى طمعا في أن تدور عجلة التاريخ الى الوراء ، ولكن هذه العجلة ستسير قدما ، والدليل على ذلك أن عددا كبيرا من الاوروبيين ساهم مساهمة فعالة في الكفاح المرير الذى يقوم به الجزائريون الآن •

ومن أمثال ذلك أن الضابط هنرى مايو عضو الحزب الشيوعى الذى انضم الى المجاهدين فى ابريل ١٩٥٦ وقتل فى شهر يونيو من ذلك العام كان قد بعث الى الصحف الباريسية بتصريح يعتبر وثيقة رائعة ، فقد قال فيه : لست مسلما ولكننى جزائرى من أصل

أوروبى واعتبر الجزائر وطنى ، وواجبى نحوها كواجب أبنائها ، ومكانى دائما فى صف الذين يحاربون فى سبيل تحريرها ، وهناك أيضا شيوعى آخر يدعى فرنان ايفتون من أصل أوروبى وقد نفذ فيه حكم الاعدام بسبب مساعدته للثوار الجزائريين ، صرح لمحاميه بقوله :

« ان حياتى كرجل لاقيمة لها ، والذى يحسب حسابه انما هو مستقبل الجزائر ولابد ان تتحرر الجزائر قريبا »

وقد كتبت الصحف ان فرنان ايفتون تعانق هو وزميله احمد لاكتيش قبل ان ينفذ فيهما الاعدام

ويبدو مما تقدم ان هذه الامة الفتية سائرة فى سبيل التحرير ، مستهينة بكل ما يعترضها من عقبات وعراقيل .

تاريخ الحركة القومية فى الجزائر

كان الجزائريون من عرب وبربر منذ القدم ومنذ وطئت أقدام المستعمرين بلادهم يوالون المطالبة بالاستقلال ويتعطشون الى اليوم الذى يزيحون فيه عن كاهلهم وطأة نير الاجنبى واستبداده ، وكان شعورهم هذا نقطة الارتكاز التاريخية التى نشأت منها الحركة القومية الحالية ، ومع أن ابراز هذا الشعور كان يتخذ وصفا موضعيا متقطعا فان مقاومة الاحتلال منذ عام ١٨٣٠ كانت الاساس الدائم الذى ساعد على تطور الحركة القومية الحالية ، فنمت هذا النمو واتسع نطاقها الى درجة لم تبلغها فى أى وقت مضى .

وقد وصف الزعيم مصطفى الاشرف أحد أقطاب جبهة التحرير الذى اعتقل فى فرنسا على أثر الخيانة التى ارتكبتها باعتقالها الزعماء الجزائريين حين كانوا فى طريقهم لحضور مؤتمر تونس فى أكتوبر

١٩٥٦ - وصف مصطفى الاشرف الحركة القومية بأنها مأساة مستمرة وكفاح عسير يجب أن يبلغ منتهاه ، وليس هذا الكفاح بطولة زائفة ، ولكنه يرتكز في الواقع على عزيمة شعب بأكمله وتصميمه وهو شعب ذو حيوية لا تقهر لدرجة أنه مستعد لبذل كل موارده المادية والمعنوية في سبيل أمنيته ، فمنذ عام ١٨٣٠ استمر الكفاح المرير بصمت ودون جلبة ، وبعد أن أدار المدمرون ظهورهم ، وبعد أن احرقوا ودمروا وهتكوا الأعراض وعذبوا وظنوا أن البلاد استسلمت نهائيا أدركوا أنه يجب عليهم اعادة العمل من أوله ، وقد اعترف ضباط جيش افريقيا - وهم آسفون - بأنه يجب استئناف فتح الجزائر من جديد ، وقال الضباط : ان ١٠٠ الف جندي لا تكاد تكفي ، لانه عندما تبتعد القوات عن مكان ما نرى أنفسنا مضطرين لاعادة ارسال جنودنا الى نفس المكان، وهذه هي الملاحظات والمذكرات الرسمية التي يكتبها كبار الضباط الفرنسيين في رسائلهم وتقاريرهم .

ويبدو أن الذين يتمشدقون اليوم بالعمل على اقرار السلام في الجزائر يجهلون أو يتجاهلون المتاعب التي عاناها الذين سلفوهم ، ومع أن الشعور الوطني كان يعبر عنه سابقا بطرق تختلف عن الوقت الحاضر ، فانه كان يعكس ظروف زمنه وملابساته ، ولكنه لم يكن مطلقا كما يحلو للمستعمرين البغاة أن يصوروه للعالم تعبيرا عن تعصب أعمى متوحش ضيق الافق ، ويمتاز بكراهيته للاجنبي ، بل كان مشبعا بروح الوطنية والشهامة ، والشرف وكرم الاخلاق .

وقد سجل التاريخ كما يشهد كبار مؤرخي فرنسا تلك الروح السامية التي ظهرها ابن علال الزعيم الاقطاعي الكبير واليد اليمنى للامير عبد القادر - عندما عرض عليه الجنرال بوجو أن يسلم سلاحه في مقابل ان ترد اليه جميع أملاكه ونصف مليون فرنك ذهبا وراتبا سنويا قدره ٥٠٠٠٠ فرنك ذهبا وكانت مبالغ مغرية في ذلك الحين .

وقد نشر شانجارنيبه في مذكراته رد ابن علال على الجنرال بوجو اذ قال له : انى أقود قواتي وأحارب وأكافح ، فماذا تعرض على في مقابل هذه السلطة التي أتولاها لاعلان كلمة الله وخدمة مولاى السلطان عبد القادر ؟ انك تعرض على اعادة أملاكى التي سلبتني اياها القوة وأنا قادر أن استردها بالقوة وارفض لقب الخائن الذى تريد أن تصمني به ! وسقط ابن علال فى ساحة الحرب عام ١٨٤٣ وكانت له منزلة كبرى عند انصاره وأعدائه حتى ان القوات الفرنسية اشتركت رسميا فى تشييع جنازته !

وهذا أيضا الرد الذي بعثت به جماعة منطقة القبائل حين عرض عليهم بوجو الاستسلام فقالوا له :

« اذا كنت مصمما على امتلاك جميع بلاد الجزائر ، واذا كنت تطمع فى السيطرة على جماعة يجدون ملجأهم بين جبالهم وصخورهم فاننا نقول لك : ان يد الله فوق يدك واعلم أننا لا نبالى بالمكسب أو بالخسارة ونحن معتادون منذ الازل على الاختيار بين الموت والمنفى . ان جبالنا ممتدة الى مسافات بعيدة ، وتؤلف سلسلة تصل الى تونس فاذا لم نتمكن من مقاومتكم سنواصل انسحابنا تدريجيا حتى نصل الى أراضى تونس .

والى القارىء رد القبائل العربية فى سهول اغريس بمنطقة مسكرة على الانذار النهائى الذى تلقته عام ١٨٤١ :

أولى لك أن تبذل جهدك في اصلاح بلدك لان اهالى بلدنا ليس لديهم ما يقدمونه اليك سوى طلقات الرصاص وحتى اذا بقيت فى بلادنا مائة سنة فان حيلك لن تجوز علينا ، لاننا نضع ثقتنا واملنا فى الله ورسوله ، ونلتف حول سيدنا وامامنا الحاج عبد القادر .

ومع ذلك فان الشعور الوطنى لم يظهر بهيئته المنظمة الا بعد زمن طويل ، لان الفرنسيين عمدوا الى تحطيم الجهاز الدولى القديم .

واتبعوا سياسة محو الشخصية الجزائرية فعرقلوا نمو الشعور الوطني في الجزائر ، ومن هذه الوجهة يختلف الحال في الجزائر عما هو عليه في تونس ومراكش التي سيطر عليها الفرنسيون بعد زمن طويل من سيطرتهم على الجزائر، فقد اضطروا في هذين البلدين الى المحافظة ولو ظاهريا على بعض الهيئات والمنظمات والمؤسسات الاجتماعية بين اقطاعية وقبائلية ، بعكس مافعلوه في الجزائر ، وهذا ما يجعل الجزائريين يبحثون اليوم عن وطنهم المفقود الذي سلبتهم اياه أيدي الاستعمار الجائرة ، وبقدر ما استفاد المستعمرون من عملهم الاجرامي بقدر ما يلقون اليوم مغبة استبدادهم وتعسفهم .

ان الحركة الوطنية في الجزائر لم تتخذ وضعها الحقيقي وتنتفض انتفاضتها الجريئة الا بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد سارت منذ ذلك الحين بخطوات سريعة واسعة ، وساعدتها الظروف والعوامل وتشكيل المنظمات المختلفة التي فتحت لها السبل على أوسع مدى ، ففي نهاية القرن التاسع عشر نشأت تيارات مختلفة في الشرق الادنى وخاصة في مصر تهدف الى نهضة الاسلام والاخذ بالحضارة الحديثة ، ونجمت عن هذه التيارات فكرة الوحدة الاسلامية والوحدة العربية ، وكان لها رد فعل عظيم في الجزائر حتى قبل الحرب العالمية الاولى، كما كان لاشتراك عدد كبير من الجزائريين في هذه الحرب الفضل في نضوج أفكار جديدة أدخلها المحاربون الى الجزائر بعد عودتهم من ميادين القتال ، ومن الخطأ القول بأن الافكار الخارجية كانت السبب في بعث الروح القومية ، لان هذه الروح متأصلة ، عميقة الجذور من النواحي التاريخية والاجتماعية ، فضلا عن شعور الطبقات الشعبية باثر رجال الفكر في مختلف الدرجات ورجال الاعمال الحرة الذين كانوا يوجهون ويغذون فكرة القومية وينمونها .

ان اول مواطن جزائري بدأ الكفاح بعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ لكي يحرر الجزائر هو الامير خالد حفيد الامير عبد القادر الجزائري

وكان ضابطا فى الجيش الفرنسي وتوفى بعد ذلك فى المنفى عام ١٩٣٧ ، ولكنه كان الرائد الاول للحركة التحريرية . وفى عام ١٩٢٦ ألفت فى فرنسا أول منظمة قومية مرتكزة على أساس شعبى محدود من الوجهة العملية ، وعرفت هذه المنظمة باسم «نجمة افريقيا الشمالية» وكان بين زعمائها الشاب « مصالى الحاج » ، وكان هذا الزعيم الجديد مترددا فى بادىء الامر بين الافكار الجديدة التى تبناها العمال الفرنسيون ، وبين نفوذ رجال الدعاية العرب الداعين الى الوحدة العربية وخاصة الامير شكيب ارسلان اللبنانى الذى تولى فى جنيف ادارة نشاط حركة الوحدة العربية خلال الفترة التى بين الحربين العالميتين .

وقد اشترك مصالى الحاج فى المؤتمر الاسلامى الذى عقد فى جنيف عام ١٩٣٥ وكان من أهم مناصرى وحدة المغرب ، ونشر فكرة القومية العربية فى أفريقيا الشمالية واعتبار مقاطعاتها الثلاث بلدا واحدا ، وفى عام ١٩٢٧ طلبت هيئة « نجمة شمال أفريقيا » قيام برلمان جزائرى على نطاق السيادة الفرنسية وفى عام ١٩٣٣ طالبت بالاستقلال التام دون اعلان برنامج معين ، ولكن مواقفها القومية الصرفة جعلتها بمعزل عن الحركة العمالية الدولية وعن طبقة العمال فى فرنسا ، فكان لهذا التوجيه أثره فى عدم تضامن العمال الفرنسيين معها ، وتعرضت لقمع رجال البوليس والقضاء ، وصدر أمر بحلها عام ١٩٣٧ ، وفى العام نفسه تألف فى فرنسا حزب الشعب الجزائرى وحل محل « نجمة شمال أفريقيا » وسار على منوالها ، واتخذ له موقفا معارضا للحركة الديموقراطية الكبرى التى قامت فى فرنسا تحت لواء الجبهة الشعبية ، ولم يحل هذا دون قيام عدد كبير من المواطنين بالمحاربة فى سبيل مثلهم القومية فى صفوف حزب الشعب الجزائرى الذى كان له كثير من الانصار فى الجزائر ، وقد حل هذا الحزب عام ١٩٣٩ واعتقل عدد كبير من أعضائه بينهم

مصالى الحاج وسلموا بعد ذلك الى حكومة فيشى ، وفى الوقت نفسه كان العلماء الجزائريون يمثلون تيارا قوميا آخر بدأ ظهوره منذ عام ١٩٣٠ الى أن تم تأليف « جمعية العلماء » فى عام ١٩٣٥ ٠

وبرز على رأس هذه الجمعية الشيخ ابن باديس الذى ظفر باحترام الشعب ، وكان العلماء يهدفون الى التجديد فى الاسلام أسوة بالمصلحين المصريين ، وتحرير الشعب من الخرافات الدينية كتقديس الاولياء وكل ما يخالف أسس الدين الصحيح ، وساهم العلماء منذ البداية فى الكفاح ضد الاستعمار وبذلوا جهودا جبارة فى مجال الثقافة ، ونظموا تدريس اللغة العربية وأنشأوا عددا كبيرا من المدارس ، فنمت فكرة الوحدة العربية التى منها الوحدة الجزائرية ، وأعلنوا معارضتهم للانضمام لفرنسا كما صرح بن باديس حين قال :

ان الامة الجزائرية ليست هى فرنسا ولن تكون فى يوم ما فرنسا ، ولا نريد أن تكون فرنسا ، ومن المستحيل أن تكون فرنسا حتى لو أرادت الانضمام لان أرضها معلومة الحدود ، وهى تشمل الجزائر بحدودها الحالية ٠

وقامت الى جانب الحركة القومية تيارات أخرى تقدمية ممثلة فى طبقة مستنيرة تتألف من خليط من العرب والبربر المثقفين بالثقافة الفرنسية وتشمل عددا كبيرا من الاطباء والمحامين ورجال التعليم ، وكان أكثر هؤلاء يميلون الى الانضمام لفرنسا ، ويعارضون فى نفس الوقت الاستعمار الشامل وينكرون أساليب ظلمه وتعسفه وينعون عليه حالة الفقر التى يعانيها الشعب الجزائرى ، وكان هؤلاء يعتقدون أن الشعب الجزائرى ليست لديه الموارد الكافية التى تؤهله لتدعيم استقلاله ، وألفت هذه الجماعة المختارة اتحادا عرف « باتحاد المختارين » برز منهم بن جلول وفرحات عباس ، وساهم هذا الاتحاد فى بث الفكرة التى تدعو الى المساواة بين الاوروبيين والجزائريين ، ولكن فشل مشروعهم هذا وتوالى الحوادث التى أدت الى قيام الحرب

العالمية الثانية جعل هؤلاء الزعماء يفكرون فى وجود الشعب الجزائرى كحقيقة ثابتة ، وكانت الطبقة العمالية في الجزائر تكافح كفاحا مريرا لتحقيق مطالبها بواسطة منظماتها النقابية التى كانت تابعة للجنة العمل العامة ومركزها الثورى فى فرنسا وكان يتم فيه اعداد العمال المسلمين والفلاحين وكان الكفاح النقابى هو المدرسة الاولى التى تخرج منها منظمو الحركة القومية •

وفى عام ١٩٣٦ انعقد المؤتمر الاسلامى بعد أن تم التحالف بين العلماء واتحاد المختارين من كبار الشخصيات ، وأعلنت هيئة «لجنة افريقيا » اعتراضها على الميثاق الذى تبناه المؤتمر ، وكان برنامجه ينص على التوسع فى منح الحريات الديموقراطية والغاء قانون المواطن الاصلى والتفريق بين الكنيسة والدولة ، ودفع أجر للعامل يتناسب مع العمل ، وقام المؤتمر الاسلامى بمظاهرات عظيمة وبعث وفودا الى باريس وبذل جهودا متصلة للتنسيق والتقريب بين عمل العمال الاوروبيين وعمل العمال الجزائريين !

وبعد نزول الحلفاء بالجزائر فى نوفمبر ١٩٤٢ أصبحت مدينة الجزائر مركزا للجنة التحرير الوطنى الفرنسية التى ألفت فى يونيو عام ١٩٤٣ وتولى رياستها الجنرال ديجول ، وتم تجنيد ٣٠٠٠٠٠ر من الجزائريين الذين ساهموا فى معارك تونس وفرنسا وايطاليا •

وكانت الحرب بحوادثها المختلفة سببا في ازالة الوهم القائل بعدم هزيمة الدول الاستعمارية الكبرى، وهو الوهم الذى كان يسيطر على عقول الجزائريين ، كما أثبتت فى الوقت نفسه قوة الجيش السوفييتى ، وأكدت تعلق شعوب الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية بوطنها الاشتراكى •

لقد حنثت الحكومات الغربية بجميع الوعود التى قطعتها للشعوب المستعمرة التى آزرتها في الحرب ضد المانيا النازية والاستعمار

الياباني ، ولم تحقق هذه الشعوب لنفسها شيئا مما وعدوها به بعد الانتصار ، ولذلك جدد الشعب الجزائرى مطالبه بصورة أعنف عندما بدأ ميزان النصر يميـــل الى جانب الحلفاء ، فانضم ممثلو الطبقة المتوسطة المتحررة الى فرحات عباس وبذلوا جهودهم فى تزعم حركة الشعب الجزائرى بأسره وقدموا للسلطات بيانا بمطالب الشعب فى ١٠ فبراير ١٩٤٣ ، وأسفرت مناقشة هذا البيان عن وضع مشروع لنظام الحكم فيه شيء من الاستقلال الداخــلى ، وينص على وضـــع دستور للجزائر وتأليف حكومة خاصة مع بقاء الارتباط بفرنسا على أساس اتحادى .

ومنذ عام ١٩٤٤ أتيح للاحزاب الوطنية بعض من حرية العمـــل وعاد أنصار فرحات عباس ومصالى الحاج والعلماء الى ضم صفوفهم وتكوين جمعية جديدة عرفت باسم « أصدقاء الحرية » ، وفى المؤتمر الذى عقدوه فى مارس ١٩٤٥ كان الفوز لانصار مصالى الحاج ، وهو نفس الوقت الذى أسست فيه الجامعة العربية وبرزت فكرة الوحدة العربية ، واتخذت مكانها الجدير بها فى الاوساط الوطنية الجزائرية ، ولكن الاستعماريين كانوا يستعدون للاخــذ بالثأر فبدءوا يدسون الدسائس ويقومون بأعمال الاستفزاز ويفكرون فى الارهاب الدموى ، وكان هذا سببا فى نشوب حوادث مايو ١٩٤٥ التى سبق ذكرها .

وفى عام ١٩٤٦ أسس فرحات عباس حزبا جديدا هو حزب الاتحاد الديموقراطى الجزائرى الذى أكد اختلافه مع أنصار مصـالى الحاج وأعلن مطالبه وهى : « لا انضمام ولا سادة جددا ولا انقسام »

ونجح هذا الحزب فى الحصول على ١١ مقعدا من ١٣ مقعدا فى انتخابات الجمعية التأسيسية الذى أجرى فى شهر يونيو ١٩٤٦ ، وقام زعماء الحزب الشعبى الجزائرى بتأليف حزب « الحركة لنصرة الحريات الديموقراطية » الذى أحرز فوزا عظيما فى الانتخـابات التشريعية فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، وأظهرت انتخابات عام

١٩٤٧ ازدياد نفوذ هذا الحزب بين الطبقات الاسلامية فدب الذعر في قلوب الاستعماريين الذين طلبوا من حكومة شومان تعزيز النظام البوليسي في الجزائر ·

وكانت لهذا العمل أهمية خاصة ، لان الحركة الوطنية الجزائرية رأت لاول مرة منذ نشأتها جميع الميول والنزعات موحدة ومتضامنة، ولكن هذه الجبهة التي بنيت عليها آمال كبيرة لم تستطع وضع برنامج يجذب اليها الجماهير ، ونبتت بين أفرادها الخلافات فانحلت قبل أن تقوم بمهمتها ، ومع ذلك فقد كانت اختبارا لتوحيد الصفوف بعد أن قامت في خلال هذه السنوات حوادث ذات أهمية عالمية ساعدت الحركة القومية الجزائرية على توجيه جهودها ·

وكان لتوكيد المصالح القومية الخاصة بشعوب الشرقين الادنى والاوسط أثر عظيم في ازالة الغرور الذي كان ينسب للوحدة العربية، وجاء انتصار الثورة الصينية وفوز شعب فيتنام في كفاحه المسلح ونجاح مؤتمر باندونج في ابريل ١٩٥٥ الذي أكد قوة حركة التحرير العامة في آسيا وافريقيا وأشاد بالكفاح المتوج بالنصر الذي قام به الشعبان التونسي والمراكشي - كل هذا فتح آفاقا جديدة أمام الوطنيين الجزائريين

وكان الشعب الجزائري تغلي مراجله وينتظر مستعدا لتلبية أي اشارة بالثورة ، فاندفع كالتيار الجارف وأصبحنا نرى الان نتائج تدفقه في جميع انحاء الجزائر من الشرق والغرب والشمال والجنوب وأصبح حزب جبهـــة التحرير الجزائري يؤدي الدور الرئيسي في توجيه سياسة الثورة ، بينما جيش التحرير الوطني يقوم بواجبه في أداء جميع الاعمال العسكرية الوطنية ·

وتمكن حزب جبهة التحرير من تدريب قوات جديدة من جميـــع الطبقات وخاصة من القرويين الذين يؤلفون الركن الاســـاسي من قوات الثورة ·

وتولى زعامة الجبهة رجال دربوا على القتال فى السنوات السابقة كما ظهر زعماء جدد كونهم القتال فى الايام الاخيرة، وظن الاستعماريون انهم قطعوا رأس المقاومة الجزائرية بعملهم الدنيء الذى قاموا به حين اعتقلوا الزعماء بن بله ومحمد خيضر وآية أحمد حسين ومصطفى الاشرف ومحمد بوضياف ، ولكن الحوادث أثبتت بعد ذلك ان الجبهة قادرة على تحمل مثل هذه العراقيل فصمدت أمام غدر المستعمرين وبرهنت على أن الحركة الجزائرية تخلق الزعماء ، وتغذى بآلاف من الصناديد الابطال • ويمكن القول بأن سلطة جبهة التحرير قد دعمت فى المدة الاخيرة وأصبح المتحدثون باسمها لهم صوت مسموع فى المجالس الدولية ، ومن هؤلاء محمد يزيد وفرحات عباس

وقد اصبحت الآن الاحزاب الجزائرية القومية متفقة جميعها على ضرورة الاعتراف بحق البلاد فى الاستقلال • كما أن الحركة القومية تعترف بحقوق الاهالى الجزائريين الذين هم من أصل أوروبى وقد صرح زعماء الجبهة التحريرية أخيرا بما يلى :

« ان الثورة الجزائرية لا تهدف الى القاء الجزائريين الاوروبيين فى البحر ولكنها تريد التخلص نهائيا من النير الاستعمارى غير الانسانى والحصول على الاستقلال القومى لاقامة جمهورية ديموقراطية اشتراكية تكفل المساواة لجميع المواطنين دون أية تفرقة »

وهذا ما اتفقت عليه جميع الاحزاب الجزائرية •

عبد الله نواد

فهرس الكتاب

صدر يوم ٥ يوليه سـنة ١٩٥٩

انتخبوا للاتحاد القومي عن دائرة عابدين



رقم ١٣٧

الأستاذ كمال الأسيوطي

المحامي بالنقض

- عضو اللجنة التنفيذية للاتحاد القومي لدائرة عابدين
- عضو مجلس إدارة جمعية نهضة عابدين

يدين

بمبادئ الثورة المباركة - وبمبدأ الحياد الإيجابي - التصنيع ومضاعفة الدخل القومي - وبناء قاهرة شعبية



رقم ٦٢

لورا الأسيوطي

دبلوم في الآداب الفرنسي

أديبة شاعرة - وطنية ثائرة وصاحبة نشيد الاتحاد القومي

تدين

بمبادئ الثورة ، وإقامة مجتمع اشتراكي ديمقراطي تعاوني يعمه الرخاء ، ومكافحة البطالة ومساعدة الأسرة والمرأة العاملة





انتخبوا للاتحاد القومي عن دائرة عابدين

المهندس

السيد اسماعيل الشربيني

رمز ٢٣

- المهندس المعماري: الذي ساهم في النهضة العمرانية الحديثة، وحل أزمة الإسكان وبناء مدينة بورسعيد
- التعاوني الحر: عضو مجلس إدارة الجمعيات التعاونية بدوائر عابدين وقصر النيل والسيدة زينب
- رجل الاقتصاد: أمين الصندوق العام للاتحاد القومي السابق بدائرة الجمالية
- الباحث الاجتماعي: فهو العضو العامل بالهيئات الاجتماعية الخيرية بالدائرة
- ابن الدائرة: فهو منكم وليس دخيلا عليكم، قاد حركة التضامن والاتحاد وغرس المحبة والتآزر بين أبناء دائرته «عابدين»

بسيط يعمل جاهدا ومضحيا في سبيل خدمتكم. فهو خير من يحمل الأمانة ويؤدي الرسالة





الدار القومية للطباعة والنشر

شركة لنشر الثقافة الحية ، والادب الرفيع ، والافكار القومية ، والبحوث السياسية الواقعية والقصة العالمية الخالدة .

٢ شارع طلعت حرب ـ القاهرة